تعويذة خائفة

رواية

ميادة الحسيني

الطبعة الأولى

2021م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

عنـــوان الكتاب: تعويذة خائفة

اســـــم المـؤلف: ميادة الحسيني

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــــداع: 2112 / 2021

الترقيـــم الدولي: 9 - 66 - 6749 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: محمد وجيـــه **التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين**

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه **رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى**

المديـر العام: د. فادية محمد هندومة **المدير التنفيذي: د هبة ماردين**

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحتـه عبر شبكة الإنترنـت، إلا بـإذن كتـابي مسبق من المؤلـف أو الناشر.

تعويذة خائفة

رواية

ميادة الحسيني

2021

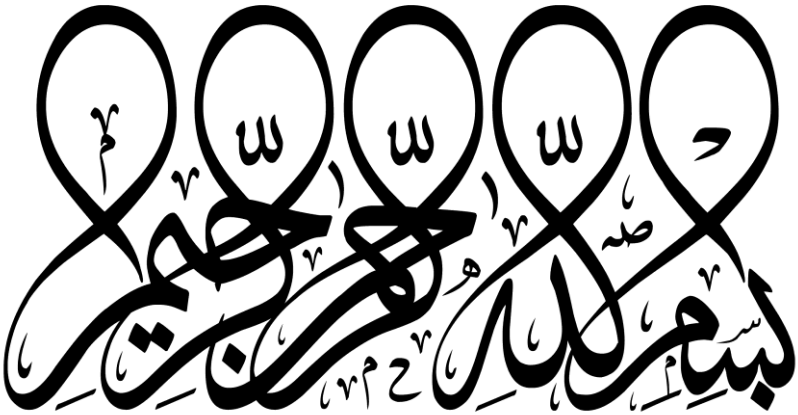
بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد وآل محمد

إهداء

إلى شهداء الوطن،

ومن لبى نداء التحرير، وأهل مدينتي الصامدين المعذبين..

للعراق بأجمعه.

ميادة الحسيني

****

تمهيد

كل ما تجدونه هنا هو يوميات جلّها من قصص حقيقية متناثرة

بأسماء مستعارة ترويها مريم..

ذكريات وتقارير من أيام الحرب على مدينتي الصامدة الموصل؛

نينوى بتاريخها وحضارتها.. لعلكم معي تترحمون على ما جرى،

وتوثقون بعض صور المأساة، وعذراً لكم من تفاصيل الحزن الكثيرة راجية أن ينال عملي هذا الرضا والقبول..

ميادة الحسيني

****

استهلال

جدرانُ قلاعٍ وقصور غطّاها غبار السنين.. كلما مرَّ عصر نقشَ عليها تاريخاً جديداً وهي قائمة بفخر تزهو متألقة..

دُفنت في باطنها أسرار الموت الأسود، عُقدت تحت بواباتٍ، وفي سراديب أخفى الزمن أوراقها.

دماء خطت، ورفاة عظام لفت فوقها صرخات الشيطان ونفحات من شرِّه التفّت حولها، لكنّ الأثر ما زال هنا، وما زالت أرواح الشرِّ تطارده من كل صوب تبحث بين أروقة الزمان، وتخوض فيما مضى من سنين علَّها إلى ذاك المدفون تصل، وتجثو تحت أقدام الشيطان معلنة الولاء الأكبر.

****

الفصل الأول

مدينتي

شوارع ضيقة، وأزقة متداخلة فيما بينها.. حين تدخلُ أحدَ أحيائها يأخذك إلى وسط السوق، ونهايته تأخذك إلى وسط سوقٍ أضيق. بعدها تتوسط شارع طويل حين تنظر لجانبيه كأنه دجلة والفرات، الكرخ والرصافة، الشمال والجنوب؛ العراق بكل قومياته وأديانه هنا اجتمعت. تبقى واقفاً في مكانك.. حين تلتفُّ سوف تجد نظراتك تتسارع في البحث بين رفوف مكتبات جمعتْ كتباً من كلّ العالم؛ كتب نادرة، كلما خطفت عينك نظرة لكتاب أسرك آخر. تكاد لا تريد الخروج منه أبداً لكثرة ما فيه من علم ومعرفة وتاريخ.

في أحد الأفرع التي انشقت منه وكونت فرعاً لا بأس به، تنظر في مقدمته ترى ما لذَّ وطاب من أنواع الحلويات، حين تدخل تجد نفسك كأنك في قصر السلطان؛ ذهب، مجوهرات، وأحجار كريمة. تمشي هنا ملتفتاً يميناً ويساراً تأسرك الألوان والأحجار فتجد نفسك قريباً من مكان آخر تنبعث منه روائح عطور وبخور من كل العالم بألوانها المختلفة، ونكهاتها الغريبة، ورائحة القهوة الزكية.

في أحد الأفرع الجانبية الأخرى أصوات تشد السامع؛ طَرْقٌ ودفٌّ يخرق الضوضاء ليصل إلى مسامعك ويرغمك على سماعه.. تتجه إلى أحد الأزقة متبعاً الصوت تجد هناك مطارق تطرق على معادن مختلفة يصنع منها أشكالاً مختلفة من الأواني والتحف، وبينما تتأمل المعادن وطرقها، يمرّ على

مسامعك أصوات منادٍ ينادي بشيءٍ ما وقرع منظم؛ إنه شراب عِرق السوس البارد؛ لعلك تتناول رشفة منه فتأخذك رائحة (السمك المسگوف)، تتبع حاستك تجد نفسك عند عتبة سوق باب السراي وبدايته؛ تقف متأمّلاً أمامك الجسر القديم الرابط جانبي المدينة، الأيمن بأيسرها.

تعود متشوقاً إلى داخل عمق هذا السوق الغريب المتشعب لتجد فيه منظراً مبهراً لا يتكرر إلاّ هنا كل صباح مهما طال الزمن لا يتغير، إنَّهم الناس الذين يأتون إليه من كل مكان، ومن كل قضاء وناحية، حتى من محافظات أخرى.

تجد في هذا السوق؛ العربي المسلم القادم من القرى البعيدة التي تقع في جنوب المدينة، المسيحي والشبكي القادم من منطقة سهل نينوى، الكردي القادم من القرى الواقعة شمال المدينة، التركماني والأيزيدي القادمين من غرب المدينة، والموصلي الذي يسكن قلب المدينة.

حين تنظر إلى كل هؤلاء، تجد نفسك أمام لوحة ملونة مزخرفة بكل اللهجات، اللغات، والألوان؛ مكونة عراقاً مصغراً في قلب نينوى العريقة.

سوف آخذكم إلى مكان آخر نقف عنده برهة؛ حين تنظر لأعلى ستشاهد منظرَ منارةٍ لجامع قديم وكبير، إنه جامع النوري الكبير الذي مضى على تشيده سنين طويلة، وتلك منارة الحدباء، حين تقترب تشعر أنها تكاد

تسقط عليك، تظن أنّك في خطر. تختلف الروايات في سبب تحدبها، لكنَّها رمز مدينتي الشامخ واسمها الذي إذا ما ذكر العراق المصغَّر، إنّها منارة الحدباء التي تتجمل بها المدينة. حول هذه المنارة تجد منازلَ صغيرةً قديمةً جداً محتفظةً بأسلوب البناء القديم، وتعدّ أثرية أيضاً يسكنها أناس توارثوها أباً عن جد، تسمّى المنطقة القديمة. إذا سرت أكثر ترى جوامع قديمة، ومراقد لأنبياء وأولياء الله الصالحين؛ نبي الله جرجيس عليه السلام، الشيخ فتحي، شيخ الشط، مرقد سيدنا الخضر، والنبي دانيال عليه السلام.

سوف نعبر النهر عن طريق الجسر الرابط بين الجانبين، سآخذكم إلى إحدى المناطق من جانب المدينة الأيسر، منطقة المجموعة الثقافية.. هي منطقة زارها الكثير من أبناء المحافظات الأخرى حين كانوا يقصدوها لأجل طلب العلم؛ فيها أكبر صرح تعليمي؛ جامعة الموصل العريقة التي خرَّجت آلاف الشخصيات العلمية والعسكرية والقيادية؛ جامعة يشهد لها العالم، وتُذكر دوماً وتصنَّف مع الجامعات العالمية.

من داخل إحدى الكليات في جامعة الموصل سأحكي لكم عن شاب اتّسمت ملامحه بالطيبة الممزوجة بالرجولة؛ تلك الصفة التي تميّز بها دون سواه. يحمل صفات تغنت بها العرب منذ القدم، لكني كنت أسمع بها فقط إلى حين لقائه ذاك اليوم. مصطفى كان يراقبني، خرجت من القسم الذي

أدرس فيه، أنزل مسرعة من على الدرج، وقعت عيناي عليه منعزلاً عن كل العالم، ينظر إليَّ بخوف، أشار إليَّ بيديه قائلاً: مهلاً إيّاكِ أن تسقطي. حبُّه طرق القلب راضخاً مطيعاً لتلك العينين، وتلك القامة. تكللت تلك العلاقة التي لم تدم طويلاً بالزواج ورزقنا بطفلة جميلة أسميناها ملك. مرت السنوات، وما بين تعب الحياة، والعمل والمنزل، وضغوطات الحياة المتوالية علينا، لم أسمح لشيء بتعكير صفو تلك العلاقة أبداً. سنينٌ مرت وملك تكبر، ونحن ننتظر وضع البلد يصبح أفضل، وأن تتحقق أحلام كثيرة خططنا لها، لكن الوضع كما هو، لا بل إلى الأسوأ. ظننا أنّ العراق بعد عام **2004** سوف تكون فيه الحياة أفضل، لكنها كانت تسير نحو الهاوية السيئة.. الأجدر بي تسميتها الحصاد. كأنَّ سحر الشياطين ألقي على بلدي وبات حصاد الأرواح فيه أسهل ما يكون.

جيوش تسير في الشوارع، وآليات عسكرية لدول ادعت بأنها جاءت محررة، وحقوق الإنسان أهم ما تنادي به جاءت من أجلها. الرّوح تُسلبُ لأسباب كثيرة، تارة لأنها لإنسان سنيٍّ، وأخرى لأنه شيعي، وأخرى لأنه كردي، وأخرى لأنه مسيحي، والكل يوجه أصابع الاتهام لبعض كأنَّها حلقة يدور داخلها الجميع، وحول تلك الحلقة شياطين مخفية لا يراها إلاّ من خان الوطن؛ تقتل وتفرق وتهجر وتشتت، وتجعلنا نبدو - نحن المظلومين- للعالم كأننا الظالمين. الطالب يذهب وأمه تنذر النذور حتى يعود؛ الزوج

يسافر والزوجة تصلي وتدعو أن يكون مروره بسلام حين يصل محافظة معينة فقد يكون اسمه محرم عند حدود إحدى المحافظات ويعدّ مرتداً خائناً، أو رافضياً كافراً، قد يعبر وقد يذبح لأنّ اسمه عمر أو اسمه علي، أو اسمه دلشاد أو اسمه جوني، أو يحمل هوية تشير إلى أنه منتسب في قوات الأجهزة الأمنية.. أو متصوف.

باتت الهوية التي يحملها ابن بلدي تحدد إذاً ما إذا كان يستحق العيش أو يموت في الحال. آثار بلدي بيعت بأبخس الأثمان. نفط بلدي أصبح مباحاً للعدو والغزاة. حدود بلدي بلا سيادة فتحت على مصراعيها لكل دول الجوار، شباب غررت بأموال بسيطة لأجل زرع قنبلة على الطريق، أو أسفل سيارة أحدهم، أو لأجل قيادة سيارة تنقله إلى الجنة عند الحور العين بعد تفجيرها على مجموعة من أبناء الوطن. حتى من أراد إحقاق الحق ترك بلاده وأصبح ينادي هنا بالمبادئ والدين. قامات علمية وأصحاب شهادات وخبرات من الأطباء والعلماء هُجِّروا من البلد بالتهديد والإجبار رغماً عنهم، ومن يمتنع يقتل. أتاوات وضرائب مالية فرضت لا أحد يعلم من الذي فرضها، ومن يمتنع يُقْتل.

المخدرات أصبحت في متناول حتى الأطفال، وتجارة الأعضاء البشرية أصبحت في أفضل حال. معامل بلدي توقفت لأجل كسب ودّ دول أخرى. كأنّ وطني أصبح وادياً تجري فيه جداول الشر، مرتعاً وملاذاً للسراق

والفجّار. وصلوا بغداد معارضين منتفضين ضد الجور والطغيان، وبعد أن جلسوا على كراسي الحكم تناسوا شعباً كان بانتظار الغوث، ليصبح حصاد الأموال عندهم على حساب الدم والدين والمبادئ والقيم.

يسود الظلم، وتسود القسوة، والموت يحصد الأرواح، والخوف يملأ القلوب، والناس تنتظر وتدعو الله أن يصبح الغد القادم أفضل لكن دون جدوى.

يبدو أنّ كثرة الخير والثروات في وطني جعلته غنيمة كبرى وسهلة لكل العالم بمباركة بعض من ينتسب إليه من الخونة. هذه صورة مختصرة لما كان يحصل بعد سنة ولغاية الآن. مرَّت الأعوام والكل ينتظر بلا جدوى.

أحد أيام الربيع في مدينتي، وبعد نزهة طويلة لي أنا مريم مع أهلي في غابات الموصل وقضاء أكثر من أربع ساعات هناك، تناولنا العشاء في شارع الغابات الذي يعج بالناس من كل مكان؛ رفض والدي عودتنا للمنزل وطلب من زوجي قضاء الليلة معهم، وبالفعل وافق زوجي؛ كانت سهرة جميلة لا تُنسى مع إخوتي وأخواتي وابنتي التي كانت ترقص وتغني بأسلوبها الطفولي المضحك.

في الصباح استيقظت على صوت في المطبخ، كانت والدتي تعد الفطور، جلست معها نتحدث قليلاً، بعدها هيأت نفسي للعودة إلى منزلي، كي يعود زوجي إلى عمله.

في اليوم التالي الأربعاء المصادف 5\6\2014 في تمام الساعة الثامنة صباحاً خرج مصطفى زوجي للعمل، اتصل بي وقال: الطرق مغلقة والسيارات كلها في الشارع، الكل متوقف.. أخبرني أنه أطفأ سيارته ووقف ينتظر أيضاً.

أصبحت الساعة الثالثة ظهراً وما زال الكل في الشارع، لا أحد يعلم ما الذي يجري.

فُرِضَ حظرٌ للتجوال مفاجئ، ثم بعد الساعة الرابعة سمحوا للسيارات بالتحرك والعودة إلى المنازل خلال مدة أقصاها ساعة واحدة فقط.

الكل يتساءل ولا نعلم ما الذي يحدث، الكل في حالة تخبط، كل واحد يفرض رأيه ويقول هناك شيء ما قد حصل في المنطقة الفلانية.

مرَّ اليوم بصعوبة والكثير تأخر ولم يستطِع الوصول إلى منزله في هذه المدة القصيرة، وبقي في الشارع إلى صباح اليوم التالي، يبدو أن الخطر كبير جداً.

في اليوم التالي فرض حظر للتجوال مجدداً وإلى إشعار آخر والناس ما زالوا يجهلون ما الذي يجري.

سمعنا أصوات إطلاق نار ومدفعية تضرب؛ لا نعلم من الذي يضرب، ومن تسبب في كل هذه الفوضى؟ لازلنا ننتظر الخبر الأكيد.

قصف وصواريخ تتساقط في كل مكان في الجانب الأيمن من المدينة استمر لساعات، ثم لأيام ما أجبر الناس على ترك منازلهم خوفاً من سقوط قذيفة هاوون أو صاروخ على منازلهم، أو سقوط رصاص لا يعلم مصدره على كل من يتجول. قرروا التوجه إلى الجانب الأيسر عبر الجسور التي تربط الجانبين سيراً على الأقدام.

كانت المسافة طويلة جداً على الأطفال والنساء وكبار السن، لذلك قام الشباب والرجال في جانب المدينة الأيسر بالتطوع والوقوف على طول الطريق الرابط بين الجانبين وتوزيع الماء والوجبات الخفيفة والحلويات وكل ما يلزم للعابرين الذين أنهكهم التعب والخوف حتى قاموا بتوفير الكراسي الخاصة بالمعاقين لأجل نقل كبار السن. ولم يكتفِ الناس بهذا فقط، بل فتحت أبواب المنازل أمام العابرين يجلسون ويأكلون وينالون قسطاً من الراحة ويزودون بالطعام والملابس وحتى الأحذية لأنّ أغلبهم خرج سريعاً دون التزود بأي شيء.

استمر الوضع لساعات طويلة وأيام وكل شبكات وفضائيات البلد وغيرها من عربية وعالمية تنقل ما يجري بصورة مباشرة.

في تلك الأثناء سمعت أصواتاً للقصف كنا نجهل أين وفي أي اتجاه بالضبط... تناقلت وسائل التواصل والقنوات المتواجدة في المدينة خبر

المواجهة التي حصلت في منطقة حي الزهراء. كانت الصواريخ قد نالت من الحي وساكنيه وتسربت مقاطع فيديو للضحايا وللحظات القصف التي راح ضحيتها الكثير. شاهدت المقطع وأنا أبكي كان منظر الجثث لأطفال ونساء هاربين من الحي الذين تناثرت جثثهم فيه.. مخيفة ومحزنة. عرفت بعد ذلك أن الجثث تعود لأقرباء صديقتي أمّ علي، وكانت من بين الجثث سيدة مسنّة أصيبت لكنها ما زالت على قيد الحياة؛ لكنها توفيت أثناء نقلها للمستشفى. كانت تلك المرأة ذاهبة لزيارة أولاد أختها الأيتام الذين توفيت والدتهم قبل فترة وجيزة وبقيت للاعتناء بهم، لكن القصف نال منهم جميعاً وهي معهم، كأنَّ الأقدار حملت بأرواحهم المشتاقة للأم التي رحلت وتركتهم. بقي التسجيل يعرض.. كان دافعاً كبيراً لهروب الناس الذين رفضوا الهرب في البداية.

في ذاك اليوم توترت أحوال المدينة أكثر والتخبط بدا واضحاً؛ الكل يحاول أن لا يعطي قراراً؛ العيون تدور في حلقة مفرغة واسعة تحيط بهم النار، والنار تلك لمن لا يقوى على ترك أرضه مثل جحيم مجبر على المرور به رغم أنه قد ضمن الجنة مسبقاً. لا حيلة باليد، فالمجهول بداية موت محقق، والقرار - لا بل أي رأي بسيط - هو بمثابة سكين كبير ينزل بقوة ويقطع الكل إلى أجزاء، هنا كانت بداية النهاية.

الفصل الثاني

وأد الحياة

أيام ثلاث مرت بخوف وقلق من المجهول، الكل يترقب، يريد معرفة ما الذي يحصل، وما الذي سوف يحصل في الدقائق القادمة. هناك من لم ينتظر ليرى الحدث، بل أخذ أول الخطى للهرب بعد أن شاهد مناظر الحرب والنار قد بدأت ثم انطفأت لتعود من جديد وبلهب أكبر. الكثيرون شعروا بالخطر دون أن يهتموا لأي شيء يملكونه أكثر من غيرهم عندما رحلوا بعيداً، ولم يعودوا، لكن من بقي كان لديه أمل بأنّ الآتي أجمل وسوف يتغير كل شيء للأفضل.

ثلاثة أيام كانت مثل مسكنات الألم لأنّ الداء كان في بدايته ولم ينقض على كل الجسد؛ أخذ يزرع الأورام في كل جزء دون أن نشعر، والترياق الذي يقضي عليه اختفى ولم يوجد له أثر. لم يعد هناك أي شيء يوقف ذاك التقدم الحذر لذاك الداء المميت.

الأوضاع مربكة؛ لم يفهم أحد من ولمَ وماذا وكيف ومتى وأين؟ وتساؤلات كثيرة، واضطرابات في الوضع.

يوم التاسع من حزيران ليس مثل كل الأيام، كان نقطة تحول في حياتنا. لم نكن نعلم أنّه يوم الوداع ولا لقاء بعد ذاك اليوم بين الأهل والأقارب ممن هرب وترك المدينة.

فجر يوم التاسع من حزيران، كنت مستيقظة، سمعت صوت أذان الفجر، نهضت وذهبت لأتوضأ وأصلي الفجر. بعدها حاولت النوم مستلقية على فراشي، أشاهد التلفاز وأراقب النزوح وما يجري في مدينتي.. غلبني النعاس وحلمت بأن الأرض كلها مزروعة، والزرع كله سنابل صفراء، والحر شديد، وجرّار واحد فقط في وسطها يحصد تلك السنابل وأنا وحدي وسط تلك السنابل التي ألقت باصفرار لونها على الأجواء.. رأيت في مكان آخر أُناساً من أديانٍ أخرى يمنعون عنا الماء، وفي الأرض طاحونة قمح عملاقة يقف عليها رجال يرتدون زياً غريباً، نهضت مذعورة، كان شعوراً مخيفاً لا أعرف وصفه، عدت للنوم وكنت متأكدة أن القادم لا يبشر بخير أبداً.

في الصباح نهضت من النوم وأعددت الفطور وناديت زوجي.. أثناء تناولنا للفطور اتصلت والدتي لتطمئن علينا فأخذ زوجي الهاتف وطلب منها عدم البقاء في المدينة؛ قال لها: اخرجوا منها أفضل لكم وآمن، حاول إقناعها بشدة فقالت له: سوف أسال الأولاد وأباهم وأرى ماذا يقولون؟ أنهى مكالمته والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً.

بعدها تحدثنا طويلاً أنا وزوجي، طلب مني أَخْذَ ابنتي والذهاب مع أهلي إن رحلوا وسيلحق بي فيما بعد، لكني رفضت؛ إمّا أن نخرج معاً، أو نبقى معاً. أنهينا الفطور فخرج زوجي إلى الشارع يتحسس الأخبار وما يجري.

بعد ساعتين؛ أي عند الساعة الحادية عشرة صباحاً رنّ الهاتف وإذا أمّي تتصل: مرحباً أمي.. ردّت: مرحباً ابنتي، ليس هناك وقت، اصغي لكلامي جيداً، لقد اقتنع والدك وإخوتك بمغادرة المدينة؛ إننا راحلون سيراً على الأقدام باتجاه قضاء شيخان، ومن هناك إلى محافظة دهوك؛ ألن تأتي معنا؟

أصابني التلعثم، تكلمت بصوت منخفض كي لا يسمع زوجي، ربما يكون قد دخل المنزل ولم أرَه. خفت أن يعرف بقرارهم ويرسلني لوحدي، لا أريد أن أتركه وحده، لذلك قلت لها:

اذهبوا لن نأتي الآن: ربما سألحق بكم فيما بعد.. ارحلوا رافقتكم رعاية الله وأبقي هاتفك مفتوحاً كي أتصل بكم واطمئن عليكم.. مع السلامة.

ما أنْ أغلقت الهاتف وانتهى الاتصال خالجني شعور لم أعرف ما هو، لم أكن أعلم أنها نهاية البقاء سوياً في ذات الأرض، وبداية رحلة الفراق والاحتضار البطيء، وصفحة أولى في كتاب وأد الحياة.

تخيلت كيف سارت أمي وأبي وإخوتي بعيداً، أخذتهم خطى أقدامهم نحو نهاية الحدود التي سوف تفرقنا. كنت أفكر أنهم سيصلون إلى أرض جديدة؛ الحياة فيها مستمرة، ولا شيء هناك، وعندما يصبحون في أمان كأنني أصبحت أنا كذلك.

بقيت على اتصال مستمر بهم لمعرفة أخبارهم وأين وصلوا وماذا يحصل معهم. في تمام الساعة الرابعة وعشرين دقيقة عصراً هزّ أركان مدينتي دوي انفجار كان مثل بركان هائج منذ سنين والآن انفجر وعلت من فوهته الحمم.. لا، الصوت كان مفزعاً وأكثر رعباً؛ صوت انفجار صهريج محمل بمواد متفجرة على القوات الأمنية التي تتمركز بالقرب من فندق الموصل غربي مدينتي؛ الضحايا بالعشرات من القوات الأمنية والمواطنين. تناقلت وسائل الإعلام الخبر، وأصبح الخطر واضحاً وما زال العدو مجهولاً.

الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل، في يوم العاشر من حزيران ساءت الأوضاع.. لم نسمع سوى صوت انفجار وبعدها سكون المكان، ثم بدأت المواجهات والصدامات بين قوات الأمن وعناصر مجهولة.

سمعنا أن الجيش قد انسحب، وأضرمت النيران بالمقرات، ولاذ من بقي حياً بالفرار تاركاً سلاحه وعتاده إضافة للسيارات العسكرية.

لم أكن أعلم ماذا سنفعل، جاء زوجي وطلب مني أن أجهز نفسي وابنتي للهرب، كنت قد أعددت مسبقاً حقيبة سفر صغيرة فيها كل ما هو مهم من أوراق ثبوتية وبعض الملابس. قال زوجي: الكل هرب ولم يبقَ في الحي سوانا، سوف نخرج سيراً على الأقدام. طلب من أمه وإخوته الاستعداد بالسرعة القصوى فالوضع خطير.

ارتديت ملابسي وأخذت الحقيبة وأوصدت باب غرفتي؛ أمسك زوجي ابنتي وما أن أردنا الخروج اتصل به صديقه وقال له:

منع التجوال قد رفع والكل الآن أخذ يهرب بواسطة سياراتهم الخاصة.. أقفل زوجي الهاتف وأخبرنا أن نقف لأنه سوف يذهب لجلب سيارته المؤمَّنة في منزل أحد أصدقائه بعد أن أخبره أنه لن يترك المنزل.

جاء زوجي بالسيارة؛ والدته وأخواه الاثنان وزوجة أخيه وأنا وابنتي ركبنا جميعاً. قادها مسرعاً لا نعلم أين نتوجه، ولا نعلم أين هو الخطر.

أسرعَ أكثر باتجاه الطريق المؤدي خارج المدينة، وبينما كان يقود كنت أنظر إلى الشارع، تدمع عيناي وأبكي على ما أرى وأتمتم بالدعاء للرب كي يحفظ ابنتي وزوجي.

كان منظر مدينتي مميتاً.. ملابس عسكرية مرمية على الطريق، عربات عسكرية تُخلي نقاط تمركزها، وفي مكان آخر جندي يقف ويمسك موقعه بقوة وشرف، وآخر يلوذ بالفرار، حريق هنا وهناك، أناس تركض باتجاه معاكس، وأناس تهرب مع اتجاه هربنا. السجون التي تعج بالنزلاء أصبحت بلا حراسة، ولا حماية، ثم عرفنا أن أبواب السجون فتحت على مصراعيها وتم تحرير كل السجناء بلا استثناء مهما كانت التهمة أو الجرم الذي قام به السجين.

الكل منشغل، وهواتفنا لا تتوقف عن الرنين، الكل يريد الخبر الأكيد؛ ماذا يجري؟ ومن الذي دخل على حين غفلة بدون علم أو إذن، أو سابق إنذار؟

حين وصلنا القرى التي تفصلنا عن محافظة دهوك كانت مغلقة؛ أمرٌ لابدّ منه لأجل السيطرة على أمن المحافظة وأهلها.

طلبنا العون.. اتصلت بوالدتي: مرحباً أمي، لقد هربنا من المدينة ولا نعلم ماذا جرى؛ فوضى كبيرة، وقصف عشوائي، والآن نحن قرب سيطرة حدود محافظة دهوك، أرجو أن تقولي لخالي أو زوج خالتي علهم يتصلون بأحد معارفهم كي يسمحوا لنا بالمرور والوصول إليكم..

- انتظري.. ردّت أمي.. أقفلي الخط وسأعود للاتصال بك.

أقفلت الهاتف، انتظرت معاودة الاتصال بعدها بعشرة دقائق، لكن الكل رفض.. الوضع صعب، ولا أحد يعلم أيّ شيء، والكل خائف من أن يتحرك ويدفع ثمن هذا التحرك إذا ما أخطأ!

توجهنا نحو قضاء تسكن فيه أختي وزوجها.. يبعد القضاء مسافة **85** كيلومتراً عن مدينتنا، لكن لا بديل ولا خيار أمامنا.. الليل موحش، والرعب والخوف من المجهول مثل كابوس يستنزف كل قوتك عندما يجثو شيء ثقيل على صدرك ويحاول سلبك الروح وأنت تقاوم.. سرنا وكانت بداية

النهاية في طريقنا. رأينا الكثير، جماعات تسرق المال، وجماعات تسرق السلاح، وجماعات تحرق عربات حكومية، وجماعات تسلب الناس والمارين بالطريق من كل شيء؛ حتى الشرف.

كان يقود السيارة وهو في سباق مع الزمن يحاول أن يسرع وكأننا نطير عن الأرض أحياناً كي يحمينا من وحشية مختزلة ظهرت فجأة في نفوس بعض البشر. مررنا بقرية.. توقفنا عند أصدقاء لنا، جلسنا لتناولنا بعض الطعام.. كانوا بانتظار ابنتهم كي تصل من المدينة وهي بانتظار مولودها.. لم يتبقَّ على ولادتها سوى ساعات. جلسنا قليلاً وصلينا الفجر.. مكثنا عندهم لساعتين، ثم عندما شق الصباح أول فجوة له في سماء الله الواسعة انطلقنا مجدداً نحو القضاء المنشود، وفي الطريق مشاهد حفرت في ذاكرتي خانة خاصة بها لن تمحى، ولن تزول أبداً.. عند مفرق طريق كانت مجموعة ضالة من شباب إحدى القرى يحاولون إيهام الناس وإرشادهم إلى طريقٍ خاطئ، وهناك جماعة تنتظرهم لتفعل بهم ما تفعل. شاهدنا عربات دخلت فيها عوائل ولم تخرج مجدداً؛ عندها عرفنا أنهم عصابات مجرمة اتخذوا من سوء الأوضاع والارتباك الأمني فرصة ليمارسوا جرائمهم في العلن. قاد السيارة بسرعة كبيرة متخطياً مجاميعهم، تاركين وراءنا ذئاباً، لا بل كلاباً مسعورة تنهش بالبشر!

ما أن ابتعدنا خفف السرعة قليلاً، وتنفسنا الصعداء.. أكملنا الطريق. كانت السيارة التي تقلنا ممتلئة، والخوف من حدوث أي ضرر مرعب جداً لنا، وما أن وصلنا مفترق طريق للعودة، أو التوجه نحو القضاء، رأينا سيارات كبيرة محملة بأناس من كل الأعمار؛ أطفال وشيوخ ونساء، ورجال يبدو عليهم مثلنا تماماً الخوف والرعب، وسيارات تشتعل، وسيارات محملة بأشياء مختلفة. توقفنا لنشاهد ماذا يحصل.. النقاط خالية من عناصرها، وسيارات متداخلة فيما بينها، وصراخ وإطلاقات نار.. الطريق مزدحم.. نحن نهرب نحو القضاء تاركين المدينة، وآخرون تركوا القضاء وتوجهوا نحو المدينة.. حالة هستيرية درامية مفجعة، لا تفسير لها في ذلك الوقت.

أكملنا الطريق من جديد، وعندما وصلنا أحد الأقضية التي كان التطرف سيد الموقف فيها على مر السنين هناك، كان الرعب في أشد حالاته.. مراهقون يقودهم عدد من الكبار يحملون سلاحاً جباراً لا يعلمون مدى خطورته.. يوجهونه نحو الناس.. انقسموا إلى مجاميع؛ منهم من يحقق مع المارين ويفرز الناس حسب الاسم والقومية والتدين، ومنهم يقفون على حفرة ينتظرون من يفرز باسم الطائفية ويرمونه في الحفرة، ويسلبونه كل شيء قبل سلبه الحياة. مجموعة أخرى تقود عربات كبيرة تذهب بعيداً وتعود محملة بالسلاح.. استطعنا أن نخدعهم بحيلة طلب الماء لأجل أطفالنا، واستعطافهم قبل أن يسألونا أي شيء.. نلنا تودهم بسرعة وهربنا،

لكن الرجل الأربعيني الذي أُخذ أمامي ورمي في الحفرة وهو مقيد اليدين مازلت أتذكره ولن أنساه أبداً.

أكملنا طريق الرعب من جديد بأمل وحياة جديدة بعد أن هربنا من الموت منذ دقائق قليلة.. أوقفتنا مجموعة تابعة لهم وأطلقوا النار من فوق رؤوسنا دون تردد صارخين توقفوا بلا حراك.. في تلك الأثناء دخل قسم منهم بسيارات كبيرة إلى داخل مبنى حكومي وقاموا بأخذ كل ما فيه من عتاد وسلاح يكفي لشن حرب بين بلدين. استمرت عملية النقل لمدة ساعتين.. منعوا أي تحرك في تلك الأثناء، وما أن أكملوا فتح الطريق كان هناك صبي يبلغ من العمر قرابة الأحد عشر عاماً أو أقل يحمل سلاح (البي كي سي).. كان لصغر عمره وكبر حجم السلاح وضخامته قد تدلى أكثر من نصفه في الشارع ويجره وراءه مثل دمية بسيطة، وعشرات مثله؛ كنا نقف خلفه مهددين بالموت من طفل استعمله الكبار مثل دمية متحركة!

وصلنا القضاء المنشود.. كأننا ولدنا من جديد وحياة جديدة وهبها الله لنا بعد موت بطيء وهرب استمر منذ الساعة الواحدة ليلاً وحتى الساعة الثانية ظهراً من اليوم التالي.

عندما وصلنا بوابة القضاء الآمن البعيد عن مرمى الرعب والنيران جوبهنا بالرفض والمنع من الدخول، وبعد انتظار طويل دخلنا، وما أن وصلت

البيت المقصود كانت أحضان أختي وطناً لي. بقينا هناك ثلاثة أيام.. كانت أخبار المدينة تصلنا أنها بخير وأننا فقط تحررنا من ظلم وبطش الحكام، والصمت عمّ المكان. قررنا العودة إليها.. قالوا كانت مجرد زوبعة في فنجان...

الفصل الثالث

بوابة العودة

الرسم بالألوان على وجوه حزينة لا يجدي نفعاً أحياناً كثيرة، فعند نزول أول دمعة يظهر لك الأسود بقوة مختفياً تحت تلك الألوان دون علمك لتستسلم لواقع مرير فرض عليك وتبدأ رحلة العيش والقبول بخدعة كانت قد دبرت لك دون علمك.

في صباح اليوم الرابع المصادف **14 /6/2014** نهضنا من النوم وودعت أختي وكأنني لن أراها أبداً بعد الآن.. بكيت بقوة وبشدة لم أعرف السبب.. كان الوداع يقتطع كل شيء جميل، وكانت ملامحها الحزينة وهي تلوّح بيدها لي وأنا أغادر كأنها نار سلطت على جسدي فأضحيت لا أرى الطريق ولا أي شيء بسبب البكاء.. في تمام الساعة السادسة صباحاً توجهنا نحو المدينة.. الطريق خطر جداً ولا نعلم من الذي يمسك بزمام الأمور. أضعنا الطريق واستطعنا أن نجد سيارات ونمشي خلفها.. أصبحنا مجموعة مكونة من ستة سيارات.. عطل أصاب السيارة.. توقفنا وبقينا لوحدنا مجدداً لنكمل الطريق. الصمت هو الأكثر ظهوراً للعلن من أي شيء.. الوضع هادئ في كل القرى والأقضية التي على الطريق.

في تمام الساعة العاشرة صباحاً وصلنا إلى بوابة المدينة وكان أشخاص هناك.. رجال مسلحون مختلفون عنا في المنظر والملابس وحتى القول.. أغلبهم حفاة الأقدام.. كان كلامهم فصيحاً جميلاً مرتّباً قولهم؛ لم يعترضوا دخولنا أبداً، ولا دخول أي بشر. استمرت السيارة بالتقدم.. مررنا بهم..

مازلت أذكر ملامحهم ترافقني في كل لحظة. توجهنا إلى داخل المدينة.. رأينا هناك عناصر آخرين أغرب، ومختلفين قليلاً.. ملثمين يحملون السلاح؛ يبدو عليهم القوة والشراسة والترقب والانتباه.. يجلسون في الطرقات، وبعضهم ينظِّمون السير، وآخرون يدورون في الشوارع بسيارات حديثة رباعية الدفع كأنها صنعت خصيصاً لهم لتنقلهم بسرعة أكبر.. بدت الأوضاع هادئة تماماً.. كانوا يقومون بتوزيع الطعام والماء والحلويات للناس احتفالاً بوجودهم في المدينة.. تودد إليهم الكثير دون خوف، لكنهم كانوا شديدي الحذر، ويعرفون من معهم ومن يختلف مع آرائهم.

وصلنا الحي.. كل شيء مختلف.. أناس كثر نعرفهم رأيناهم يقفون معهم ويرتدون نفس ملابسهم.. كانوا فيما يبدو على صلة بهم قبل دخولهم هذه الأيام.. المدينة كانت مزودة بالكهرباء الوطنية لمدة أربع وعشرين ساعة دون انقطاع، وضخ المياه مستمر.. قاموا بتوفير كل وسائل الراحة للمواطنين كي يكسبوا ثقتهم ويزيلوا الخوف الذي كان مبنياً بينهم. حين دخلنا المنزل كان أول شيء نفعله هو تنظيف المنزل والاستحمام ثم الإفطار، وبعدها خلدنا إلى النوم بسبب الإرهاق من السفر والخوف طيلة تلك الساعات.

أصبح الفقير يتناول كلّ شيء دون أن يدفع.. الوضع كان مثل الذي استيقظ من النوم ليجد نفسه أسيراً داخل مدينة الأحلام مرفَّهاً يجد حوله كل ما يرغب فيه من طعام ومال وأضواء وتسهيل في كل الأمور، فجأة

تنطفئ الأضواء.. يختفي الطعام.. تسلب الأموال.. تنزل القضبان حوله تُقيِّد الأيدي وتعمي الأبصار، وتخرس الأفواه.. من يعترض أدان نفسه وحُكِم بالإعدام!

توالت الأيام وكان كل شيء متوقفاً.. كأن الحياة تخاف من الاستمرار والمضي قدماً، وتنتظر القادم والمجهول. منتسبو الجيش والقوات الأمنية منهم من هرب؛ ومن لم يهرب يعتقل من قبلهم ويؤخذ إلى جهة مجهولة.. الكثير ممن لم يستطع الهرب من أبناء المحافظات الأخرى قام أبناء مدينتي بأخذهم وإخفائهم عن أنظار من يبحثون عنهم، ثم ينتظرون الوقت المناسب ويساعدوهم على الهرب خارج المدينة خوفاً من قتلهم، أو اعتقالهم.. مواقف أبناء المدينة تجاه إخوتهم من أبناء المحافظات الأخرى مواقف مشرفة ولا تُنسى، وبعيدة عن التطرف والتفرقة والعنصرية التي زرعها الخونة بيننا.

أذكر لكم حكاية أحد أبناء المدينة المدعو أحمد؛ لديه صديقان، أحدهما من محافظة البصرة، والآخر من بغداد من المكون الشيعي؛ أخذهما إلى منزله وبقيا عنده لأيام. الغريب بالأمر أنه كان مناصراً للقادمين الجدد ومبايعاً لهم مسبقاً، وهو أمير لديهم. لكنه لم يؤذهما بحكم الصداقة التي بينهم. أراد أن يهيئ طريقاً آمناً لهما لكن تم كشف أمره من قبل أحد مساعديه

فقام التنظيم بمراقبته وتم إلقاء القبض عليه هو وصديقيه وأخذوهم إلى الوالي والقاضي كي يصدر الحكم بحقهم. بعد أن صدر الحكم اقتادوهم إلى ساحة كبرى ترابية. جعلوا كل واحد منهم يمسك بأداة كي يحفر حفرة دون أي تبرير، ولا حتى فهم ما يجري بأي شيء، وممنوع عليهم أي سؤال، وما أن انتهوا من العمل نادوا الأمير الذي ساعدهم.. جاء أحد الملثمين إليه وكان حسب ما ذكر رجلاً يبلغ طوله مترين أو أكثر، جسده ضخم جداً مثل الوحوش الذين يظهرون في الأفلام.. دفع كل واحد منهم بقدمه إلى الحفرة وأطلق عليهم الرصاص.. كان يحمل بيده سيفاً.. أمسك الأمير، ألقاه على الأرض واكتفى بوضع ركبته على ظهره فكسر له العمود الفقري وتركة على الأرض كي يكون عبرة لمن هم حوله من عناصر العبث المحتلين الجدد.

الفصل الرابع

البداية

شهر رمضان على الأبواب، وزوجي بلا عمل، وراتبي الشهري لم يصرف بعد، وضعنا المادي بدأ بالتدهور لكننا كنا صامدين رغم كل شيء.

في أحد الأيام اتصلتُ بوالدتي حيث كانت في محافظة أخرى. سألتها عن أحوالهم، فقالت: نحن بخير.. سألتني: أنتم ما هي أوضاعكم؟

- لا بأس، الهدوء يخيم المكان، ونحن بانتظار رواتبنا، ألم يقل لك والدي شيئاً عنها؟

- والدك في الموصل جاء ليأخذ السيارة التي تركناها في المنزل وبعض الأشياء المهمة.

- هل سيزورني؟

- لا أعلم؟

انتظرت والدي كثيراً.. اتصلت به:

- مرحباً والدي.. كيف حالك وأين أنت؟

- أهلاً يابْنتي.. أنا بخير، وأنا عائد في طريقي إلى الإقليم..

سألته إذا ما كانوا سيعودون للمدينة أم لا؟

- لا أعلم.. حالياً سوف نبقى هناك بضعة أيام ونعود بعدها إلى بيتنا.. لن أترك مدينتي.

- انتبه إلى الطريق لن أشغلك أكثر فأنت تقود السيارة الآن..

مع السلامة.. أنهيت الاتصال.

كنت أود رؤيته، اشتقت إليه كثيراً لكنه لم يأتِ.. أشغاله وظروفه في العمل كثيرة، أعلم ذلك.

اتصلت بي أختي لينا وطلبت مني أن أذهب وأعيش في القضاء آمن لي وأفضل، لكني كنت في حيرة من أمري، فلا نقود لدينا حتى نستأجر غرفة واحدة وبيت صغير. قالت لي أختي: هنا أفضل لكم وأقرب لكم إلى محافظات الإقليم إذا ما أردتم الرحيل أو صادفكم موقف صعب أو أي هجوم مفاجئ لن تكونوا لوحدكم سنكون معاً. رفض زوجي الفكرة ولم نذهب.

انتظرنا كثيراً أن تتغير الأحوال في المدينة.. كانت الحكومة تعطي تصريحات تلو الأخرى ولم نرَ أي تدخل أو مفاوضات بين الأطراف المحتلة أو الحكومة. كنا في تخبط وحيرة لم نعلم ما الذي يجب علينا فعله. وبعد أيام قليلة ظهر في الجانب الأيمن على منبر مدينتي في جامع النوري الكبير زعيم التنظيم أو الخليفة؛ خليفة الدولة الإسلامية المزعومة، وخطب من

هناك خطبة أعلن فيها قيام الدولة الإسلامية في بلاد العراق والشام لتمتد بعد ذلك وتنطلق من الموصل وصولاً إلى روما مثلما قال في وقتها، كانت البيعة إجبارية، وفي كل مكان وقضاء وقرية هناك الكثير ممن امتنع من الذهاب، وكثير منهم بايع خوفَ الفتك به، وآخرون مناصرون سارعوا لأجل البيعة ولأجل نصرتهم ونصرة ما جاؤوا لأجله، وهنا كان قد بدأ عهد جديد في مدينتي واتضحت الرؤية وصرنا نعرف من هم الذين احتلوا مدينتي على حين غفلة، لكن مازلنا نتساءل من الذي خان مدينتي؟ من الذي أدخلهم؟ من الذي أتاح لهم وسهل لهم الأمر؟ من الذي اختار لهم الزمن؟ من الذي قتل الفرح في مدينتي؟

أول قرار أصدره التنظيم كان تفجير المراقد الدينية التي فيها قبور لأنبياء أو أولياء صالحين، كان القرار غريباً جداً لم نعرف هل هو حقيقي أم كذب! لكن حين تم تبليغ الساكنين بالقرب من جامع النبي يونس والمحلات القريبة منه والباعة المتجولين بإخلاء المنطقة بالكامل كان الخبر شبه مؤكد. وبعد فترة وجيزة في أحد الأيام بعد أذان العصر سمع صوت انفجار مدوٍّ وكبير هزّ المدينة.. حزناً بكت شوارعها قبل أهلها.. صمت رهيب بعد ذاك الصوت الذي حوّل المكان إلى أرض جرداء.. كان المرقد والمنارة والقبة تقف شامخة كأنها تلوح باسم نبي الله يونس لكل الزائرين، ومع اختفائهم اختفى معنى الأمان؛ اختفى اسم مدينتي. الوجوه بانت عليها تعابير الاستياء،

لكن لا حول ولا قوة لهم. شعور غريب سيطر على المكان، بان على التصرفات والأفعال كأن الناس نيام؛ بل في سبات أو ربما كابوس سينتهي قريباً، لكنه كان البداية فقط للبلاء الأكبر وهو داء أُلقي على أبناء مدينتي.

بعد تفجير أكثر من مرقد كان الرعب قد بدأ بالتسلل إلى قلوب الناس. فمن الذي يستطيع أن يفجر مكان يذكر فيه اسم الله دون أن يرف له جفن، وتفجير الآثار والمناطق الأثرية التي فيها حضارات مرت وتركت أثراً يفخر به الناس؟ إلا أنَّ السر الذي فيه أكبر من مجرد أثر تركه بعض الناس عبر العصور أنه بوابات لعوالم قد تكون مخفية عنا نحن البشر لكن هناك الكثير ممن يريدون الوصول إليها مهما كان مقدار الدم ومقدار الخسائر في كل شيء لا يهم؛ المهم تحقيق الهدف المنشود الذي أملاه عليهم سيدهم الأكبر.. لن أكتب الكثير، وأترك القارئ مع الأحداث التي جرت لنا نحن ممن يجب، ومن المفترض أن نكون لا نفهم ما يجري سوى أنها مجرد معركة لأجل نشر الدين، أو سرقة الأموال.. لم يعلم أن هناك من لديهم أسرار تشبه أسرارهم، لا بل أكثر، لكن الصمت أفضل أحياناً من كلام غير مفهوم للبعض ويتهم من يقوله بالجنون والشرود.

فيما بعد ذلك بسنين عرفت السرَّ وراء تفجير تلك المراقد.. كانت لأجل ما يوجد تحتها من كنوز وآثارٍ لعصور قد مضت، وأيضاً لأسباب كثيرة يبدو أنَّ عدم ذكرها أفضل؛ فحراس البوابات مازالوا تحت تلك المراقد.

في أحد الأيام، وبعد صلاة العشاء شاهدنا ألعاباً نارية في السماء وضجة وفوضى في الشارع، وبعد أن سألنا اتضح لنا أن التنظيم توجه إلى مكان اشتهر في الموصل، ألا وهو فندق الموصل، وقاموا بإعادة تأهيله وتنظيفه من جديد، ولكن تم تغيير الاسم إلى فندق (الوارثون). يوم الافتتاح شهد احتفالاً كبيراً وألعاباً نارية وتوزيع أنواع الطعام مجاناً بهذه المناسبة. أصبحت الخدمات والمبيت في الفندق لعناصر التنظيم مجانية.

بدأ التنظيم بالتحرك لاحتلال النواحي والأقضية التي كانت قوات الجيش أو قوات البيشمركة قد انسحبت منها إلى أطراف القضاء أو الناحية.

توجه التنظيم إلى سهل نينوى واقتحم ناحية (برطِلة) بعد معارك مع الجيش ما أدى إلى هروب المسيحيين وكل من يسكن هناك، وهرب من يستطيع الهرب، وقُتل من قتل أثناء المواجهات، وعاد الكثير من المسلمين الذين هربوا من الداخل إلى المدينة إلى هناك هرباً من القصف، ومن لم يعد من المسلمين أُرغم على العودة إلى داخل المدينة وترك القضاء لأنه تحول بعد ذلك إلى مكان للغنائم وقاعدة عسكرية وخط صدٍّ.

بعد صلاة العشاء في إحدى الليالي وقف العناصر على المنابر وفي الشوارع ينادون الأخوة المسيحيين ويطلبون منهم الإصغاء إلى القرار الذي يخص تواجدهم في أرض الخلافة وهو إما اعتناق الإسلام، أو البقاء في المدينة

وإعطاء الجزية، أو ترك المدينة نهائياً دون عودة ويمنع عليهم أخذ أي شيء من ممتلكاتهم التي يستطيعون نقلها من أموال وأثاث فضلاً على أنَّ من يترك المنزل ويخرج يصبح المنزل ملكاً للتنظيم، كان الإخوة المسيحيون يسكنون في سهل نينوى، وأيضاً في كل أحياء مدينتي؛ في الأحياء القديمة والجديدة بجانبيها الأيسر والأيمن؛ البعض رفض الخروج من المدينة وتركها وترك منازلهم وفضلوا البقاء واعتناق الدين الإسلامي فقط أمامهم وخوفاً منهم على أنفسهم، والكثير فضل الهرب إلى منطقة أخرى ظناً منهم أنهم لن يعرفوهم لحين تصفية باقي ممتلكاتهم والخروج سراً فيما بعد، أما الأغلبية ففضَّل الرحيل إلى الأبد وفي الحال دون انتظار تاركين كل شيء خلفهم مهما كان ثمنه.

أتذكر أم جورج جاءت في الليل إلى منزلنا وقالت جئت لأودعكم لأني سوف أرحل.. كانت تبكي وبكينا معها بشدة.. لم نكن نرغب برحيلها.. كانت جارة ودودة محبة لعمل الخير وتحرص دائماً على احترام كل عاداتنا وتقاليدنا وتقوم بكل الواجبات التي تعكس كل معاني الإنسانية.. غادرت منزلنا وكان زوجها وأولادها في الباب.. ودعناهم وكانوا بعد كلِّ خطوة وأخرى يلتفتون وعيونهم غارقة بالدموع ووجوه حزينة على الرحيل بلا ذنب ولا حتى سابق إنذار، وعلى الطريق حين كانوا يغادرون كانت سيطرات

التنظيم في الطريق وضعت لتفتيشهم وسلبهم كل ما يحملون من أموال أو ذهب أو هواتف ثمينة أو أي شيء ثمين آخر.

أبناء المدينة الأصلاء الطيبون قام الكثير منهم بالمحافظة على منازل الإخوة المسيحيين، والكثير عمل على بيع أغراضهم سراً وإرسال الأموال إليهم أو نقل الأغراض والأثاث سراً إلى خارج المحافظة وتسليمها لهم. كان كل ذلك يدل على مدى المحبة والأخوّة ما بين المسلمين والمسيحيين هنا.

قصة رافدين التي رفضت ترك المدينة ومنزلها بقيت عالقة في الأذهان. رافدين سيدة مسيحية تعيش لوحدها في الجانب الأيمن منذ أن مات والداها. حين سمعت بالقرار (حان موعد الرحيل) رفضت وقالت سوف أعتنق الإسلام، وفعلاً ذهبت واعتنقت الإسلام فقط خوفاً منهم، وعندما سمع أهلها بذلك تبرؤوا منها.. لم يعلموا أنَّ إسلامها كان مجرد حماية لنفسها، وحباً بالمدينة وبمكانها. بقيت مع جيرانها وهم عائلة مسلمة إلى يوم التحرير.. لم يفترقوا أبداً، ولم تبقِ لنفسها أي شيء يدل على أنها مسيحية سوى سلسلة من ذهب فيها صليب كانت تخبئها كل مرة في مكان ما؛ تخرجها خفية لتصلي وتدعو الرب ثم تخبئها من جديد، وبعد التحرير رفضت الرحيل أيضاً وعادت لمنزلها من جديد.

وأذكر أيضاً أم يوسف التي كانت قد أنهت مناقشة رسالة الماجستير قبل أيام من احتلال المدينة، وحين تركت المدينة عمدَ أحد جيرانها على نقل كل ما تملكه من أثاث وأشياء ثمينة عبر السطح، وقام بتغليفها وحفظها لها، وحين تحررت المدينة اتصل بها وقال كل ما تملكينه لدي تعالي وخذيه.

كانت تلك الأفعال من المسلمين تجاه الإخوة المسيحيين خير دليل على العلاقة الوثيقة التي بنيت على محبة وسلام منذ سنين طويلة ولم ولن يستطيع أي أحد أن يزرع روح التفرقة والكراهية بينهم. بعدها بفترة قليلة بدأ التنظيم بتهجير أبناء المدينة من المكون الشيعي وأبناء المكون الشبكي من الشيعة باعتبارهم رافضة.

في مدينتي عشنا لسنوات طويلة مع الشبك؛ هم أناس مسالمون جداً ولا يبحثون عن أي مشاكل، وليس لهم أي علاقات مشبوهة. هادئون جداً ولا يتدخلون في أمور لا تعنيهم.. لم يؤذوا أحداً مطلقاً؛ ذنبهم الوحيد أنهم شيعة. وأيضاً هجّروا بعض الأيزيديين والصابئة الذين يسكنون في المدينة. كل هذا يحدث متسلسلاً والناس تنتظر تدخل القوات الحكومية والمسؤولين لإيقاف ما يجري؛ لكن لا أحد يتدخل ويصرح.

كان القرار التالي للتنظيم عن المنتسبين في صفوف القوات الأمنية ممن لم يهرب وممن لم يترك الأرض والمدينة.. كان القرار هو أن يأتي المنتسب إلى

أحد الجوامع المخصصة للتوبة، وإعلان توبته من العمل في سلك الجيش أو الشرطة أو أي سلك عسكري وتسليم السلاح الخاص به مع إعطاء مبلغ قدره أربعون ورقة أي أربعة آلاف دولار، ما يقارب الخمسة ملايين في العملة العراقية.. وتُؤخذ منه المستمسكات وتعهد خطي بعدم مزاولة المهنة مرة أخرى تحت أي ظرف كان، ومن يتخلف عن القدوم وإعلان التوبة يكون مرتداً عقوبته الموت. كان الكثير منهم إما يهرب أو يجلس ولا يخرج.. كنا نظن أنه تهديد مؤقت.

أذكر حالة مرّت بها صديقة لي كان زوجها يعمل في دائرة مرور نينوى مفوضاً بسيطاً وامتنع عن تسليم سلاحه أو إعلان التوبة وهرب خارج المدينة، لكن عاد بعد فترة وحين وصوله كان أخوه الأصغر قد بايع التنظيم وتزوج ابنة الأمير المسؤول عنه ولم يتوانَ أبداً عن تسليم أخيه لهم، وبالفعل أخذوا منه السلاح وأعلن التوبة، ولشدة الخوف منهم وما أصابه من التعذيب وأساليبهم معه خرج من السجن هزيلاً مريضاً وتوفي بعدها بأيام.

ولاء عناصر التنظيم للتنظيم ذاته وللخليفة كبير جداً، ولا شيء يقف أمام العنصر حين يؤدي وأجبه؛ لا أهل ولا أقرباء ولا أي شيء.

قامت إحدى السيدات في مدينتي حين سمعت أنّ من لم يعلن التوبة سيقتل بإخفاء أبنائها داخل سرداب في منزلها وأخبرت كل من يعرفهم أنهم سافروا إلى تركيا حتى أطفالهم لم يعرفوا بوجودهم في السرداب إلى أنْ جاءت لحظة الحرية وأخرجتهم وأعادتهم للحياة مثلما أخرجتهم أول مرة من رحمها إلى الحياة.

في أولى أيام شهر رمضان بدأت بعض القوانين البسيطة بالظهور، وأول شيء قاموا بفرضه هو غطاء الوجه للمرأة فقط. كان الأمر يبدو بسيطاً نوعاً ما في البداية؛ فهو مجرد غطاء؛ أي ما يسمي بالخمار، وهو قطعة قماش سوداء تصمم على ثلاث طبقات؛ اثنتان منها سميكتان وأخرى أقل سُمكاً توضع فوق الوجه كي لا يرى أحد في الشارع ملامح وجه المرأة لأنها عورة..!

في رمضان ساءت حالة حماتي جداً، وكان يجب عليها أخذَ حقنة معينة.. إنها جرعة كيميائية لأجل إيقاف التهاب المفصل لديها. طلبت مني الذهاب معها.. لم أمانع أبداً وذهبت معها ومعي جارتنا أم علي.. حين وصلنا المستشفى كان هناك أشخاص ملثمين يقفون في الباب وطلبوا منا أن نرتدي الخمار في المرة القادمة وأنهم لن يحاسبونا الآن لأننا تظاهرنا بأننا لم نسمع شيئاً عن قرارهم بارتداء الخمار. دخلنا المستشفى وكان كل شيء تحت سيطرتهم التامة وعلى كل قسم يقف أحد العناصر التابعة لهم ويحاسب

النساء غير المخمرات، ويمنع الرجال من الدخول إلى قسم النساء مع بقاء أحد عناصرهم داخل الممرات في الأقسام النسائية مسموح لهم ذلك.

دخل أحد الملثمين الغرفة وكان يبدو أنه مسؤول كبير لديهم وما أن رأته جارتنا أم علي حتى بدأت تسأله عن موعد رواتبنا وما مصيرنا وهم موجودين الأن هناك، ومن هم وماذا يريدون؟ كانت أسئلتها جريئة جداً فأجابها بغضب تارة، وبلين تارة أخرى:

لقد خاطرنا بحياتنا لأجل تحريركم من جور الحكومة والقوات الأمنية وتركنا أهلنا وأطفالنا لأجلكم أنا لم أرَ أولادي منذ سنة وتسعة أشهر لأجلكم.. كنا نعيش في الصحراء ونبقى بلا طعام وشراب بانتظار أن نحرركم ونكون بينكم؛ الآن وها أنتم كل همكم الأموال والرواتب وكيف ستعيشون بدلاً من أن تقفوا معنا وتناصرونا.. أنهى الحديث وخرج دون أن يعيرها أي اهتمام.

بعد أن أخذتْ حماتي الحقنة انتظرنا لمدة ساعتين ثم خرجنا بسرعة خوفاً أن يحصل شيء من قبل هذا المسؤول. أيام شهر رمضان كانت قاسية جداً لأن الراتب تأخر كثيراً.

استمر الوضع السيّئ.. وفي أحد الأيام كانت الساعة الثانية ظهراً في يومٍ رمضاني اتصلت أختي.. لا أتذكر ماذا أرادت تحديداً لكن أثناء الحديث قالت لي سوف أخبرك بأمر هام وسري بيني وبينك ولا تخبري به أحداً..

- تكلمي لا تخافي

- لقد اعتقلوا عمي الصغير من منزله هو وابن عمه منذ منتصف شهر رمضان لكننا لم نبلغك لأنه اعتقل بتهمة كونه من الشيعة.. قالوا لزوجته مجرد استفسار وسوف يعود بعد أقل من ساعة.. لكنه لم يعد.. سأل والدي عنه كثيراً لكن لا أحد يعلم أي شيء عنه.

- لِمَ لمْ تقولوا لي علّني أسال عنه هنا أو زوجي يسأل عنه.. لماذا لم تبلغوني؟

- الوضع مخيف ولا نعلم ما الذي سيحدث، لذلك لم نود إعلامك وهذا الذي حصل..

عمي عبدالله العم الأصغر بين سبعة إخوة وثلاث أخوات كان لديه مشاكل في القلب منذ أن كان صغيراً. حين بلغ السن القانوني في زمن صدام حسين كان يهرب دائماً ويترك الجيش، وكانت القوات الأمنية تلاحقه من مكان لآخر، وفي إحدى المرات اعْتُقل وزج بالسجن، وكانت المحكمة تحكم على من يهرب بالسجن لمدة ثلاث سنوات إذا لم يكن بالإعدام. الكل في المنزل كان يبكي حين جاء يوم المحاكمة ينتظرون الحكم وكأن المنزل فيه

عزاء بانتظار جثة الميت لتوديعها إلا أمه، كانت لا تبالي كأنها تجردت من كل مشاعر الأمومة أو أنها في صدمة كبرى.. لا نعلم ما بها. اقتربتْ منها والدتي تجهش بالبكاء على عمي.. هي بمثابة أخت كبرى له.. حنونة جداً عليهم وحين تزوجت كان هو أصغر الكل.. تعتني به وهو يحبها ويحترمها كثيراً. اقتربت أمي من جدتي وقالت لها خذي هذه العباءة.. عمي ينتظرك؛ لكن قبل أن تذهبي كيف تتمالكين أعصابك بهذه الطريقة يا عمتي؟ صمتت جدتي لدقائق وهي تنظر إلى أمي.. أخذت العباءة من يدها وارتدتها: اطمئني لن يحكم طويلاً ولن يعدم بإذن الله. كانت ثقتها في كلامها تثير العجب.. الكل يعلم أنها حين تقول شيئاً يحصل بالفعل كأنها تحمل تعويذة، أو عصا سحرية، أو تميمة ما، وبالفعل فقد حصل ما قالت؛ حُكِم لمدة ثلاثة أشهر فقط.. كان أمراً عجيباً جداً.. الكل يعلم أنّ مثل هذه القضايا قد أدخلها النظام ضمن قضايا خيانة البلد وحكمها الإعدام. لازلت أتساءل: ماذا فعلت جدتي وكيف عرفت؟

بعدها هرب مرة أخرى بسبب موت جدتي ولكن هذه المرة ألقي القبض عليه وحكم بقطع الأذن لأنه هارب متخلِّف عن الخدمة العسكرية..!

بعد أن زال النظام أيضاً مرة أخرى سجن لفترة بلا ذنب يُعرَف؛ فقد كان في تلك الفترة هناك من يعتقل الشباب ويطلب المال كي يفك أسره وسجنه؛ هكذا دون سبب.. هذا ما كان يقال وقتها.. بعدها بفترة أخرى احترقت

الشقة التي يسكن فيها، واحترق الأثاث وكل الأموال التي كان يعمل بشقاء لأجل أن يعيش أولاده بسلام وأمان ويؤمن لهم كل شيء ويدخلهم المدارس التي حرم منها في صغره، لكنه لم يستسلم واستمر في العمل ووقف على قدميه من جديد ولكن حين دخل التنظيم مدينتنا ها هو الآن يعتقل من جديد.

قفلت الخط معها سريعاً واتصلت بصديقتي إيمان.. كان والدها تاجر ورجل أعمال مستقل له علاقات واسعة.. هي صديقتي منذ أن كنا في الصف الأول الابتدائي.

اتصلت بها وألقيت التحية وسألتها عن أحوالها.. سألتني:

- لقد انتظرت كثيراً هذا لاتصال.. أين أنتِ؟

- أنا بخير.. لا أريد إطالة الحديث الآن؛ أريد خدمة منك لأمر مهم.

ردّت إيمان: أنت تعلمين أني لا أرد أي طلب لك.. تحدثي ماذا تريدين. أخبرتها عن عمي وأنهم قد اعتقلوه بتهمة أنه من الشيعة؛ ورجوتها أن تعلم العم أحمد والدها ربما يعرف أحداً أو يسال عنه وسأكون ممتنة له.

- حسناً، أعطني الاسم كاملاً والمكان الذي يسكن فيه.. أغلقي الهاتف الآن وسوف أخبره وأعاود الاتصال بك إذا ما استطاع أن يعرف شيئاً عنه.

انتظرت لساعات ثم اتصلت إيمان وقالت: لقد استفسر والدي من أشخاص وقالوا له إياك أن تسأل عنه أو تقول أين هو أو أي سؤال مهما كان؛ لأنَّ السؤال ممنوع ومحرم فهو شيعي، إذا أردت أن نبلغك بشيء معين تعال وانضم إلينا وسوف تعرف كل شيء وقد نعفو عنه لأجلك لذلك والدي رفض التعامل معهم أو حتى السؤال مجدداً عنه.

أن ترى عزيزاً على قلبك ومن دمك يؤخذ إلى المجهول دون سبب ولا أحد يقدر على معرفة هل هو حي أم ميت فهو إحساس لا يوصف، وحزن لا يشبهه حزناً آخر.

اتصلت بزوجة عمي المعتقل كاظم.. في البداية لم تجب على اتصالي.. كررت الاتصال عدة مرات.. أخيراً أجابت.. ما أنْ بدأت السؤال حتى أخذت تبكي وقالت لست بخير.. هل سمعتِ بما جرى لعمك؟ كنا نجلس في ظهيرة يوم السابع من رمضان أنا وهو وأخي وأخذت تبكي أكثر وأكثر، وأكملت كلامها بصعوبة: داهموا المنزل وقالوا أين هوياتكم وأوراقكم الثبوتية؟ أخذوها من يده وقالوا له تعال معنا لدينا استفسار.. أنت وابن عمك أخو زوجتك.. أخذوهما وإلى الآن لا نعرف عنهم شيئاً وأنا قد تركت المنزل وأخذت أولادي وسافرت خوفاً من عودتهم وأن يأخذوا أحد الأولاد. أخبرتها أنني ووالدي نسعى جاهدْين لنعرف مكانه، وإذا وصل أي خبر سوف نبلغك. قالت إن شاء الله.. بلغي سلامي للجميع، وأقفلت الخط.

مرت الأيام والكل ينتظر وسمعنا أنَّ الحكومة قد صرفت رواتبنا أخيراً لم نصدق إلى أنْ رنَ هاتفي في أحد الأيام بعد أذان المغرب بساعة، كانت صديقتي أم عثمان تتصل لتخبرني بأنَّ عليه الذهاب إلى منزل المديرة في الحال، لأنها قد أخذت رواتبنا وسوف يتم التسليم في منزلها لأن الوقت غير ملائم للتواجد في المدرسة. قلت لها أنا قادمة حالاً انتظروني.

بعد منتصف شهر رمضان المبارك كان الخمار إلزامياً ولابد منه وممنوع خروج النساء بدونه لذلك ارتديت خماري وعباءتي وجهز زوجي السيارة وذهبنا إلى بيت المديرة كي نأخذ الراتب وما أن وصلت كان الكل موجوداً هناك من كادر المدرسة دخلت تفاجأ الجميع وخافت المديرة وأنا أخبئ وجهي تحت الخمار وأضحك خاف الكل لأني لم أرفع الخمار.. بعدها قالت من أنتِ وماذا تريدين؟ قلت لها لا تخافي أنا مريم.. ضحكت بقوة وقالت صدقاً؟ لم أعرفك وخفتُ كثيراً، وأثناء إعطائنا الراتب حصل انفجار قريب وقوي جداً ثم حصلت مواجهات ونظرنا إلى السماء فكانت قد ملئت بأضواء القصف والنيران.. كان هناك تقدم باتجاه أحد الأقضية التابعة للمكون المسيحي وكانت مواجهات قوية بين لعناصر والقوات الأمنية التي مازالت تسيطر على جزء من هذا القضاء. أخذت راتبي وخرجت سريعاً. وصلنا إلى المنزل وسمعنا تكبيرات في الجوامع كانت قد انتهت المعركة بفرض سيطرتهم وانسحاب القوات الأمنية بصورة تامة. بدأت الاحتفالات

من جديد.. فبعد كل غزوة مثل ما كانوا يسمونها وتنجح تبدأ احتفالاتهم والتكبيرات في الجوامع.

قبل انتهاء شهر رمضان طبق قرار الزي الإسلامي الكامل، أي النقاب الأسود ويتكون من عباءةٍ سوداء فضفاضة وخمارٍ ذي ثلاث أغطية يوضع على الرأس ويغطى به الوجه كاملاً، وكف أسود لليدين وجوارب سوداء. من تمتنع وتخرج من المنزل دون هذا الرداء يحاسب ولي أمرها زوجاً كان أو ولداً أو أباً ويجلد أمام الناس في الشارع. ثم أصبحت بعد ذلك تحاسب من قبل نساء الحسبة؛ حيث كانت نساء الحسبة يحملن أداة حادة تسمى العضاضة ويقومون بعض النساء اللاتي لا يطبقن القانون ويؤخذنَ إلى مقرات الحسبة النسائية وتجلد ويحاسب زوجها أيضاً وتدفع غرامة مالية حسب الشيء الذي امتنعت عن ارتدائه أو المخالفة التي قامت بها.

كان الزي الذي فرضه التنظيم على أهل المدينة يطبق على النساء في البداية وهو مصدر رزق لا بأس به لهم. لكن فيما بعد فرض الزي على الرجال وأيضاً اعتبر مصدراً للرزق ومصدراً كبيراً جداً.

انتهى شهر رمضان وكان العيد عبارة عن سواد تتشح به المدينة بسبب زي النساء الأسود. مرت أيام العيد الأول والثاني والثالث. كنا ننام على السطح فالكهرباء بدأت تنقطع وعادت لأسوأ حالاتها ونحن غارقين في النوم في اليوم

الذي تلى آخر أيام العيد.. استيقظ الكل على أصوات تكبيرات وإطلاقات نارية وأناشيد دينية تخصهم في كل مكان.. ترى ماذا يجري؟

في الدقائق التي سمعنا فيها ذلك تساؤلات كثيرة أخذت تتضارب فيما بينها وقلت ربما دخل الجيش لتحرير المدينة، أو ربما هناك شيء كبير قد حصل، أو قد تكون غزوة تكللت بالنصر مثلما كانوا يقولون.

كان الوقت متأخراً لكني اتصلت بأمي وبعد الاطمئنان عليهم قلت لها: ماذا يجري؟ هل سمعتم شيئاً على قنوات التلفاز من أخبار جديدة أو أي شيء؟ أخذت نفساً عميقاً وتنهدت، قالت: نعم لقد دخل التنظيم قضاء سنجار قبل قليل. تملكني الخوف والرعب وصرخت وقلت: من قال ذلك؟ وكيف وأختي أين هي؟

صدمة كبيرة كانت بالنسبة لي قلت لها: ماذا تقولين وأختي وأطفالها أين هم الآن؟ أجابتني اطمئني لقد هربت لأن زوجها كما تعلمين منتسب وحالياً هم في طريقهم إلى مدينة أخرى.

كنت متوترة وخائفة جداً على أختي.. اتصلت بها.. هاتفها مغلق.. كنت أطمئن عليها عن طريق أمي فهي تستطيع الاتصال عن طرق والد زوجها. لم أستطع النوم.. الخوف عليها كاد يقتلني وأنا أتذكر آخر مرة رأيتها فيه

وهي تلوح بيدها من خلف الباب وتبكي ترى أين هي وأطفالها وماذا حصل معهم؟

بعدها بساعات رن هاتفي.. إنه رقم أختي..

- أختي لينا أين أنتِ؟ وماذا حصل لكم؟

- نحن بخير وصلنا إلى دهوك لكن لن أنسى ما رأيت في طريقي وما حصل لنا وللأيزيدين من الأطفال والكبار في السن وأخذت تبكي..

- لها اهدئي.. اذهبي وخذي قسطاً من الراحة كي يخف التوتر لديك والخوف وكل ما رأيته هناك.

في اليوم التالي كانت أخبار الغزو والذبح قد نشرت في كل مكان وأنهم احتلوا قضاء سنجار.

لم أسمع من أحد بل أمسكت هاتفي واتصلت بأختي وقلت لها: أروي لي ماذا حصل لكم وماذا شاهدتِ أثناء الهرب من سنجار بالتفصيل لأن الروايات كثرت ولم أعد أعلم من الصادق ومن الكاذب.. قالت: حسناً اصغي لي ما سوف أحكيه لك مؤلم ولا يوصف أبداً.. شعور الخوف من الألم والحزن العميق لمن نراهم يسقطون أمامنا ولا نستطيع المساعدة شعور رهيب بالفعل لكني سأروي لكِ، وبدأت تحكي لي:

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بدأنا نسمع أصواتاً للقصف قريبة جداً؛ لم نكن نعلم ما يجري لكننا فقط كنا نسمع الأخبار المتناقلة عبر الهواتف أنّ هناك قصف ومواجهات بين التنظيم وبين القوات الأمنية وقوات البيشمركة.. لم نستطع النوم وبقينا ننتظر إلى أنْ جاءنا الخبر الأكيد في تمام الساعة السابعة صباحاً وطلب منا ترك القضاء وبأسرع وقت ممكن أخذت أجهّز ما يمكن تجهيزه خلال ربع ساعة لا أكثر وتجهيز أطفالي الأربعة بأسرع ما يمكن. وبالفعل خرجنا فقط حاملين معنا حقيبة ملابس بسيطة لا غير.. كان الوقت يداهمنا وحين خرجنا من المنزل رأيت ما لم أرَه سوى في أفلام تتحدث عن طوفان أو إعصار أو بركان نزل بأحد البلدان.. كان الناس يركضون باتجاهات مختلفة إذا ما أرادت اتباع أحد كان ذلك مستحيلاً لأن الكل لا يعلم أين يتجه بالضبط.. رأيت أطفالاً يركضون حفاة ونساء ورجالاً يصرخون.. رأيت شخصاً ترك سيارته في وسط الشارع وأرسل زوجته في سيارة كبيرة تجمّع فيها كل النساء والأطفال ووجد بعد ذلك مقتولاً وسط الشارع. وعند باب أحد مراكز الشرطة وجدنا جثة أحد عناصر الشرطة ملقاة بعد أن تم ذبحه. خرجنا بسرعة واتجهنا نحو الطريق المؤدي إلى ناحية ربيعة؛ كان الطريق عبارة عن فوضى كبرى.. البشر حولنا في كل مكان؛ في سيارات وسيراً على الأقدام، وكان أمام سيارتنا رتل من السيارات العسكرية التابعة لقوات البيشمركة الكردية فجأة تعرض الرتل لقصف كبير واستشهد منهم القناصة وجرح عدد آخر؛

أكملنا طريقنا وكانت عصابات التنظيم تطاردنا حتى حدود منطقة سحيلة. وأخيراً وصلنا بخير والحمد لله.

حين وصلتْ وأطفالها إلى بر الأمان كانت عقارب الساعة لا تزال متوقفة عند عائلة أبو دلين الأيزيدية حين فتحت باب منزلها.. كانت أهوال الحرب قد دقت طبولها وأعلنت الموت لكل الساكنين هنا.. دخلتْ مسرعة وأيقظت زوجته وبناته الستة دلين وجيمن وديمان وبروين وشيرين ودنيا هربنَ باتجاه الجبل وكان المشهد هناك درامياً مليئاً بالرعب ولا يصدق. كانت قذائف الهاون تنزل تتساقط حولنا من كل اتجاه والسيوف كانت مرفوعة وملطخة بالدماء ورؤوس مقطعة مرمية هنا وهناك.. أطفال يتراكضون نحو المجهول وحيدين وآخر من هول ما رأى وقسوة المنظر ظل يركض مسرعاً وعيناه على السيوف حتى سقط من الجبل.. نساء كانت تُجر من شعرها وتسحب مرغمة مثل سبايا في زمن قرأت عنه في كتب التاريخ الذي مضى كلما أشاهد الدم أجمع حولي بناتي وأركض لا أعلم أي اتجاه أسلك فقط نركض هاربين. استدرت لكي أجمعهم؛ دلين وبروين أين هما؟ صرخت وصرخت أين هما؟ العدو على بعد أمتار يلحق بكل حي ويركض خوفه ويطارده مثل وحش خلف فريسته. لم نستطع البحث عنهما أو العودة أي خطوة إلى الوراء. نظرنا أنا وزوجتي خلفنا رأينا رجالاً يرمونهم من على الجبل.. المنظر بشع لا يوصف، كنت أحمل ابنتي شيرين وزوجتي تحمل ابنتنا

ديمان ودنيا وجيمن تمسكان بثوب أمهما وتبكيان.. أنظر إليهم وقلبي تركته خلفي مع ابنتيّ هل لازالتا على قيد الحياة؟ ركضنا اقترب العدو أكثر وأخذنا نركض ووابل من الرصاص خلفنا وقذائف الهاون مستمرة وقفت كي ألتقط أنفاسي نظرت إلى ثوب زوجتي لم أجد أصابع أيدي ابنتيّ الممسكتان بثوب أمهما أين هما؟ صرخت أين دنيا وجيمين، أين؟ وأخذت أمهما تبكي وتصرخ وتضرب على رأسها ووجها.. كان الأوان قد فات للعودة إليهما أيضاً. أكملنا الطريق بلا وعي أجبرتنا نيرانهم على الهرب وتركنا خلفنا أربعة فتيات أحياء أو أموات الله فقط هو من يعلم. أصبت بالذهول لأكثر من ساعة ونصف كانت أختي تروي لي ما جرى وأنا لم أقاطعها أبداً.

بعد أيام من غزو سنجار بدا الكلام يتردد عما يسمى السبايا الأيزيديات وعن الغنائم الحربية وكيف أنهم جلبوهنَّ للمدينة وبدأ القادة بتقسيم الغنائم والممتلكات الخاصة بأبناء قضاء سنجار والأيزيدين ولكل قائد عدد من السبايا له حرية التصرف؛ يهديها أو يبيعها لمن يشاء. الكثير منهم كان يبيع السبايا ويبقي على اثنتين أو واحدة فكان ثمنهن يتراوح ما بين خمسمائة ألف وصولاً حتى مليون وأكثر حسب تصنيفهم للسبايا. السبايا كلمة كأننا حين نسمعها نكون أمام مشهد تلفزيوني أو فلم قديم يتحدث عن عصر ما قبل الإسلام أو في وسط زمن الجاهلية.

كان للمهاجرين الحصة الأكبر في كل شيء من سبايا وغنائم باعتبارهم قد تركوا أراضيهم وأهليهم لأجل الجهاد ونصرة الإسلام في مدينة مسلمة حسب آرائهم حيث من هنا من الموصل ستكون الانطلاقة نحو أوروبا. لذلك كان المهاجرين هم الأوفر حظاً في نيل الغنائم والسبايا.

في مدينتي عمد الكثير من الطيبين من أهلها الشرفاء المتمكنين مادياً من شراء سبايا وثم يخبئوهن، بعدها يقومون بتهريبهن خارج المدينة وهكذا دفع أحد الرجال من مدينتي حين قام بشراء سبية أيزيدية تبلغ الثامنة عشرة من عمرها خمسمئة دولار أبقاها عنده لفترة معينة ثم قام بإرسالها إلى كركوك عن طريق سائق يسافر يومياً إلى هناك وينقل الناس ومن هناك توجهت هي إلى الإقليم.

كنت أحتاج لبعض الأشياء المهمة لغرفتي ولي أنا شخصياً.. طلبت من زوجي أن أنزل إلى السوق وقال سوف أرافقك أنا. كنت أحب المشي كثيراً لأنه كان يخرجني من وحدتي التي أنا فيها أو الحيرة ربما والخوف من هذا الوضع الذي مازلت لا أعرف أين ومتى سوف ينتهي.

حين خرجنا أنا وزوجي كان الفضول في داخلي كبيراً جداً لرؤية المهاجرين أو الأجانب من الجنسيات الأخرى.. رأيت الكثير منهم كأن الكرة الأرضية اجتمع سكانها هنا في مدينتي؛ جنسيات وأشكال لم نكن نراها سوى بأفلام

هوليود شخصيات مختلفة، أشكال مختلفة لغات مختلفة، هذا كان غريباً عليّ خاصة أني لم أسافر لأي بلد واقتصر سفري حين كنت صغيرة إلى محافظات العراق كلها شمالاً وجنوباً أما عن خارج البلد فلم أسافر أبداً ولم أرَ غير الجنسية الفلسطينية والمصرية فقط في بلدي.

الفصل الخامس

من هم؟

أستطيع أن أصف مدينتي بأنها أصبحت مثل كرة أرضية صغيرة اجتمعت فيها كل الجنسيات والأقليات المحلية والعربية والغربية. أصبحت مثل جزيرة اجتمع فيها الكل تحت راية سوداء.

اجتمع هنا كل من كان له ثأر ضد آخر أو له جرم وهارب أو شدد عليه في بلده فوجد هنا ملاذاً آمناً، أو كل من كان يظن أنه الحق فجاء راكضاً دون أن يعلم هل هو فعلاً الحق أم لا!

كان الروس هم الأكثر تواجداً؛ كانوا يمتازون بسرعة حركتهم وقوتهم البدنية وزيهم المرتب وأحذيتهم الرياضية ذات الماركات العالمية المعروفة والملونة وكان أغلبهم قناصين، عرفتهم من السلاح الخاص بالقناصة الذي على ظهورهم ومن لون بشرتهم واللغة أيضاً، وكانت معهم نساؤهم وأطفالهم أيضاً.

أما الفرنسيين؛ كان الأغلب فيهم في الحسبة ونساؤهم يعملون في الحسبة أيضا لجلد وضرب النساء، كانوا شديدي التطرف وغير متفاهمين أبداً.

والأفارقة كانوا فعلاً أصحاب أجساد ضخمة وبشرتهم السوداء تؤكد تكون عتمة من ظلمة الليل الذي لا قمرَ في سمائه أو نوراً في أرضه، وكانوا يمشون مجتمعين دائماً يحمون بعضهم البعض لا يتفرقون.

أما الآسيويون فقد كانوا يمتازون بتواجدهم ودائماً ما نراهم يمضغون أشياء للحفاظ على قوتهم وأبدانهم، كنت أميزهم من أشكالهم التي لا يختلف عليها أحد وأيضاً معهم نسائهم وكانوا غالباً يستخدمون الدرجات النارية في تنقلاتهم من مكان لآخر هم وزوجاتهم رغم أن هذا الشيء غريب في مدينتي أن تستخدم أنثى دراجة نارية في التنقل إلا أنه أصبح أمراً عادياً لهم فقط.

والهنود كانوا يتواجدون بكثرة هم والأفغان والباكستانيين فكان زيهم مميزاً كما نعرفه كلنا قميص طويل وبنطال عريض كما كنا نراه في الأفلام الهندية تماماً، ومن كل الدول بلا استثناء الأوروبية والأجنبية، أما الدول العربية فكان المسؤولون من الأردن كُثر وكانوا ذوي سلطة كبيرة وكلامهم مسموع جداً، والسعوديون يمتازون بعشقهم للشهادة وانتظار أدوارهم وتسلسلهم في تفجير أنفسهم؛ فقد كان هناك حجز مسبق وقوائم لا يمكن لأي أحد أن يتأخر بتاتاً أو يقدم أو يؤخر في التسلسل. أما عن المصريين فقد كانوا ذوي سلطة أيضاً وأصحاب رأي ومشورة والسوريين كثر مثل العراقيين الذين في التنظيم يعتبرون هم الجزء الأكبر من العناصر والأكراد والمسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وبايعوا التنظيم من كل الدول ليس العراق فقط.

والأيزيدين الذين انضموا للتنظيم رغماً عنهم أو بإرادتهم، فالكثير منهم كان بإرادتهم قد تم انضمامهم بطرق مختلفة، ولا ننسى الأتراك الذين يشكلون أيضاً جزءاً كبيراً. كانت مدينتي مكتظة بأناس من كل بقاع الدنيا ويجيدون اللغة العربية الفصحى وبطلاقة.

كل هؤلاء يشتركون ومتشابهون بشيء واحد وهو اللحية؛ أي الذقن الطويل والشعر الطويل وثم توحد الكل بالزي أيضاً، الزي القندهاري الذي يكون عبارة عن ثوب يصل حد الركبة وبنطال فضفاض يشد عند القدم.

وبألوان مختلفة واللون الأبيض يرتدي عناصر الحسبة الذين يجولون في الشوارع كي يحاسبون المخالف سيراً على الأقدام وتتبعهم سيارة بيضاء كبيرة نوع خاص وعناصر الشرطة الإسلامية يرتدون اللون البني الفاتح والعناصر الأمنية يرتدون الزي الأسود مع لثام على الوجه ويقودون سيارات سريعة. كان الزي القندهاري خاص بهم وحدهم لكنهم بعد ذلك فرضوه على كل الرجال وبمختلف الألوان وهذا كان مصدراً ثانياً لهم لجمع المال لأن الخياطين والمعامل التي تقوم بتجهيز السوق بالزي تعود لهم وحدهم.

وقد حدد التنظيم عقوبة لكل شيء قد فرضه على حدة؛ مثلا إذا رفض إطلاق اللحية وكان شعر رأسه ذا تسريحة يسمونها قزعي يؤخذ فوراً إلى الحلاق الذي حلق شعر رأس هذا الشخص يعاقب بالجلد والغرامة ثم

يقومون بإزالة شعر رأس الحلاق بالكامل والشخص المخالف كلاهما يعاقب.

أيضا إذا ارتدى الشاب بنطالاً طويلاً لم تظهر منه قدمه وقليل من ساقه يجلد في الحال ويطلبون إبدال بنطاله بسرعة ويمزقوه أمام أنظار الناس في الشارع.

وثم عقوبة السجائر؛ عقوبة السجائر لمن يبيع ومن يشتري لها قصة وحكاية كبيرة وأحياناً مضحكة وأخرى حزينة قاموا بمنع بيعها وتحريمها ومن يشاهدوه يدخن يقومون بوضع آلة حديدية في الإصبع الذي يمسك السيجارة وبحركة سريعة تكسر الأصابع مع دفع غرامة مالية. أو عقوبة أخرى وهي تعديل القبور أي تهديم البناء الذي يبنى حول القبور من حلاّن أو مرمر أو أي شيء يجعل القبر أعلى من مستوى الأرض أو الجدار الذي يحيط بالقبر باعتباره حرام وغير جائز لذلك عقوبة المدخن أحياناً تكون بتعديل عدد معين من القبور وجعلها مستوية مع الأرض.

أو العقوبة ربما تكون السفر يومياً إلى قضاء تلعفر وجلب وصل من هناك يثبت أن الشخص الذي وقعت عليه العقوبة قد وصل القضاء ثم يعود بنفس اليوم ويقوم بتسليم الوصل هذا إلى دائرة معينة تختص بهذا الشيء وهكذا لمدة ثلاثين يوماً. كانت الغرامة بسيطة جداً لكن في أيام

التنظيم الأخيرة كانت عقوبة السجائر الجلد والحبس ومصادرة الأموال كلها ودفع غرامة بالذهب سبعمئة غرام من الذهب.

لي صديقة زوجها كان يبيع السجائر أخبرتني أن أحد الشباب وشى بزوجها ودخلوا البيت ليلاً غفلة قالت من شدة خوفي أن يقتلوه وضعت كل السجائر في التنور الطيني الخاص بالخبز وأشعلت النيران بها وحين سألوها ماذا تفعل قالت إني إعد التنور لأجل الخبز، الأطفال جياع وبعد أن رحلوا أخذ زوجها يشتمها وانهال عليها بالضرب لأنها أحرقت بضاعة يتجاوز ثمنها تسعة ملايين.

أما عن المخالفات الباقية مثل السرقة فتقطع اليد عن طريق إقامة منصة للعقوبة وسط الشارع ويقوم العناصر بجلب الناس عنوة لمشاهدة العقاب وهو قطع اليد للسارق. وكثير ممن قطعت أيديهم ليس لشيء فقط بل لأنه كان جائعاً وسرق ليسد جوع أطفاله بعد أن أصبح الطعام حكراً لهم.

أما عن عقوبة الزانية فإنها تجلب أيضاً مرتدية النقاب ويأتي أهلها وترجم حتى الموت، وحصل ذات مرة سمعنا إطلاق نار في إحدى ساحات كرة القدم القريبة من المنزل كان الوقت بعد صلاة العصر تجمع الناس فجلبوا امرأة لأجل أن ترجم لكنها استطاعت أن تنفد من رجمهم ولم تمت وزحفت إلى أن وصلت خطاً قد وضعوه بينهم وبينها وحين تصل هذا الخط يمنع رجمها

وتترك لتعيش لكنهم أبوا إلا أن يقتلوها بحجارة كبيرة وضرب على الرأس بصورة مباشرة حتى فارقت الحياة. ومن يسمع الأغاني يجلد وعقوبات أخرى كثيرة.

أذكر مرة قصدت السوق في جانب المدينة الأيمن؛ سرت مع زوجي وسط السوق.. توقفت عند أحد المحلات كي أشتري فستاناً لابنتي لكن دون أن أنتبه وجدت زوجي قد سار بعيداً عني فإذا بأحد عناصر الحسبة يصرخ عليّ: أين المحرم يا امرأة؟ التفت إليه وبعدها ألقيت نظرة أبحث فيها عن زوجي وسألته مرتعبة، ماذا تقصد بمحرم؟ قال ألا تعلمين أن النزول إلى السوق دون محرم ممنوع وغير شرعي؟ لم أجادله وقلت له: أعتذر منك لا أعرف عن ماذا تتحدث لكن زوجي معي كان يقف هنا أعتقد بأني أضعته بسبب الخمار لأن الكل هنا نرتدي ذات الخمار رفعت يدي وناديته باسمه مصطفى مصطفى فجاء مسرعاً واعتذر منه وحاول أن يبين له الوجه المؤدب من شخصيته الملتزمة وقال له رجل الحسبة: انتبه في المرة القادة سوف تجلد أنت وهي؟ كان هذا القرار جديداً وهو أن خروج المرأة من المنزل دون محرم؛ زوجها كان أو والدها أو ابنها يعتبر أو حتى طفل أو طفلة صغيرة تتجاوز أعمارهم الست سنوات مخالف للشرع ويحاسب ولي الأمر في الحال. كان عناصر الحسبة المسؤولون عن الأسواق معروفين جداً؛ منهم المسمى أبو هارون؛ كان مسؤولاً قوياً جداً يهابه الجميع وإذا ما أمسك بمخالف أياً

كان، كانت العقوبة قاسية أكثر مما يتوقعها. كان حين يعلم الباعة والمتسوقون بوجوده في السوق يلتزمون الحذر وكثير منهم يمتنع عن الاقتراب من السوق.. لقد آذى الكثير من الناس.

مع كل هذه التعليمات كان هناك شاب لا نعرف سوى لقبه"الكبير"، يثير تساؤلات عندي وشكوكاً، لكن لا أحد يعلم هل هو كاذب أم أنه مجنون فعلاً. كنت أراه دوماً في المنطقة، سألت مصطفى عنه كان ذا منظر غريب وتصرفات غريبة الملامح.. وجهه متجهم بجسد غريب التكوين.. كان دوماً يضع السماعات في أذنه وتارة يرتدي زي الجيش وأخرى الزي الأفغاني ومرة أخرى زي عربي وهو الوحيد الذي لم يحاسب من قبل التنظيم على تصرفاته.. سألته: لماذا هو هكذا؟ قال: إنه مختل العقل نتيجة سقوطه على رأسه حين كان صغيراً.

كان هناك الكثير ممن يرفضون ما يجري في المدينة ولكن ما يحدث أكبر من أن يقوم شخص لوحده أو حتى مجموعة فيما بينهم لأجل المقاومة أو الاعتراض بصورة علنية؛ لذلك ظهرت تحركات سرية بين الحين والآخر لأجل إبداء الرفض وزعزعة الأمن الذي كان ينعم به التنظيم بعد أن تركت الحكومة المدينة ولم تحرك ساكناً لأجلنا. كانت الحركات كثيرة ومتفرقة.

ومن بين أولئك المضحين الرافضين لما يجري شاب من عائلة بسيطة كان يعمل ليل نهار على استفزازهم وإثارة الرعب فيهم. كان يقوم بحرق عجلاتهم أو دراجاتهم، وقام بأخذ الثأر لأبناء مدينته. كان يخرج مع أذان الفجر ويتسلل بهدوء نحو أماكن مرورهم ويقتنص ويثأر وهو لوحده بلا أي مساندة أو حتى غطاء من أي شخص. كان يعمل بصمت ويثأر بصمت.. رفض الجلوس ومشاهدة ما يجري في المدينة. كان مثل ذئب الليل ستارة له والصباح إشراقة أمل لروحه التي انتفضت لوحدها وهي تنتظر المدد.

الفصل السادس

المحاولة

وضع المدينة والأهالي مثل حال ورقة يعطيها أحدهم بيد طفل يرى الأقلام الملونة لأول مرة فيقوم بدون تردد برسم خطوط عشوائية متداخلة فيما بينها ومهما حاولت أن تفكك شفرة هذا اللغز الذي فيها لا فائدة؛ فإنك لن تقدر.

الكل في حيرة، هل نخرج أم نبقى هنا؟ لكن أخيراً قررت أنا وزوجي الخروج وترك المدينة عن طريق السفر إلى كركوك بحجة العلاج، لأن السفر مسموح به وحدود المدينة كلها مفتوحة على المحافظات الأخرى ويحق للجميع السفر والذهاب والعودة وقتما يشاء. أردت السفر بشدة لأني كنت أريد رؤية أهلي والبقاء معهم في مأمن مما يجري حولي.. اتصلت بأمي أكثر من مرة وخالي كان قد هيأ لي أحد الأشخاص كي ينقلني إلى كركوك لكن الدخول إلى مدينة دهوك مستحيل وغير مسموح به لأنهم كانوا يخافون من المندسين الذين يحاولون زعزعة الأمن.

اتصلت بخالي.. رن هاتفه.. أجابني بدون مقدمات، قال لي: رجاءً اسمعي مني هذا الكلام، يجب أن تخرجي من المدينة بأي شكل حتى إذا سكنت في كركوك مؤقتاً لحين تهيئة لكم أحداً يعمل على إدخالكم إلى دهوك.. إياك والبقاء.. اخرجي بسرعة فإن احتلال المدينة سوف يطول زمنه وسوف تندمين على بقائك هناك.. رجاء اخرجي يابْنتي..

أجبته وقلت له: حالاً سوف أبلغ زوجي بهذا الكلام ونخرج قريباً إن شاء الله..

أخبرت زوجي عن كلام خالي معي وتحذيره.. كنا نثق به وبكل ما كان يقوله هو على دراية بما يجري حولنا.

كانت الأخبار متناقضة وأغلبها كاذبة عن أحوال من يخرج من المدينة باتجاه محافظات الإقليم أو محافظات أخرى أيضاً، منهم من يقول أن العرب يتعرضون للمضايقات الكثيرة والعنصرية والتطرف، ومنهم من يقول أنهم سوف يخرجون العرب ولن يسمحوا لهم بالبقاء داخل أراضي الإقليم، وآخرون يقولون أن كل من نزح داخل الإقليم سوف يوضع في مخيمات خاصة بهم أو خاصة بالمهجرين.

اتصلت بأمي وأخبرتها عن كل ما سمعته وما يقال فأخبرتني أن كل تلك الأنباء كاذبة لأن رئيس الإقليم قد أصدر قراراً باحترام النازحين العرب وعدم التلفظ بأي كلام يثير غضبهم فهم ضيوف مرحب بهم وأنه قد أصدر أنّ من يحاول عكس ما أمر به سوف يتعرض للسجن وغرامة مالية، وفعلاً طبق القانون وكان الإقليم بمحافظاته الثلاثة قد فتحت الأبواب أمام كل النازحين العرب وغيرهم دون أي تردد وحفاظاً على سلامتهم وأمنهم وكل ممتلكاتهم. كانت تلك حركة لنبذ الطائفية ومبادرة سوف يذكرها التاريخ

دوماً، وليس هم فقط، بل كل محافظات العراق دون استثناء قد فتحت الأبواب بمصراعيها أمام كل من هرب ولم يكن شمالاً وجنوباً والوسط، كانوا قلباً مفتوحاً عامراً بالخير والطيب لأبناء مدينتي. كان النازح حين يذهب لأي محافظة في العراق ترى الكل حوله ويساعده ويقدم له كل ما يستطيع.. فعلاً كأنّ الغيرة والرجولة وطيبة القلب خلقت لنا.

بعد أيام حان موعد الخبر.. كانت السيارة التي سوف تقلنا موعدها ساعة الفجر قرب المنزل. جهزت حقائبي وكل ما أرغب بأخذه معي.. كانت الفرحة في قلبي كبيرة لا توصف أبداً لاني اشتقت لأهلي كلهم، و بينما كنت أهيئ ما تبقى من الأمتعة.. دخل زوجي وعلامات البؤس والحزن عليه ونظر مطولاً إليّ دون كلام ثم قال لي: لن أرحل ولن أترك أهلي ولن أترك مكاني.. انطفأت تلك الشموع التي أوقدها قلبي فجأة، كان الخبر قاسياً جداً عليّ.. لم أحاول إقناعه أو حتى مناقشته، فقد أخذ بكلام والدته وقالت لا تذهب وابقَ هنا أفضل لك.

تملكني الغضب.. بكيت بشدة ولم أتفوّه بكلمة.. أخذت أفرغ الحقائب والحزن يمزق خيوط الأمل التي كنت أنسجها لنفسي كل يوم وأنا أنتظر لقاء أمي وأبي.

كانت ليلة حزينة جداً لم أنم فيها، وكنت أنظر إلى عقارب الساعة وأشاهد اقتراب الوقت من الرقم أربعة الذي من المفترض أن يكون موعداً ليوم جديد وغدٍ أفضل، لكن تبدد كل شيء وانتهى مع مرور العقرب من الرقم أربعة. كنت أحس بشيء في داخلي كأنه يحاول تنبيهي بعدم الخروج والخوف مما هو المنزل. كنت أود الخروج، اشتياقي لأهلي كبير..

أيام قليلة مرت ثم بدأت مداخل المدينة تغلق ويمنع الخروج من المدينة أو الدخول إليها إلا بموافقة خاصة ولأجل العلاج أو إتمام معاملة خاصة، لكن الكثير من الناس كانوا حين يتركون المدينة لا يعودون، لذلك عمد التنظيم إلى أن يكون خروج الناس لا يسمح إلا برهن منزل أو عقار ما خاص بهم، أو إيداع مبلغ مالي كبير كي يضمنوا عودتهم وعدم الهرب بعدها مع إعطاء مدة زمنية لأجل العودة.

لذلك كان البعض يعطوهم سند ملكية للمنزل كي يسمحوا لهم بالمغادرة من المنزل. كان الكثير لا يعود ويشتري حريته وحرية أبنائه لكنهم ضيقوا الخناق أكثر فأصبحت المغادرة فقط لصاحب الشأن المعني. حتى بعد مرور سنة وحين بدأت الامتحانات الوزارية كان يمنع الخروج؛ فقط للطالب أو الطالبة.

كانت الأيام تمر والاشتياق يزداد أكثر لأهلي لكن لا أمل في ذلك. بدأ التنظيم بالاستيلاء على منازل النازحين الذين تركوا منازلهم بحجة أنهم مرتدون عن الإسلام وتاركو أرض الخلافة إلى أرض الكفر.

رأينا أحرفاً تخط على واجهة المنازل.. كان الأمر غريباً ولم نفهم كان الحرف (ن) يعني نصراني يخط على المنزل الذي يملكه مسيحي، وحرف (الراء) يعني رافضي على منزل الشيعي، وحرف (م) يعني مرتد لمنزل المنتسب في صفوف القوات الأمنية، أيّاً كانت الجهة أو الرتبة العسكرية ونفس الحرف على منازل النازحين ويكتب بقرب الحرف عبارة العقار يعود الآن لأمير أو مسؤول يعمل لدى التنظيم يكتب على جدار المنزل.

عندما سمعت هذا الخبر طلبت مساعدة من إخوة أبي لأكثر من مرة أنّ يحموا منزل والدي.. رفضوا حتى أنّ بعض الأجهزة الثمينة كانت لدى أحد إخوة والدي أخذها عنده في بداية النزوح رفض أن يبقيها عنده وطلب مني أن أذهب إليه لأخذها. كان الوضع غريباً جداً.. كانت الحياة بدت تكشف عن الشخصية الحقيقة لكل إنسان.. الحقيقة التي كانت مخفية خلف قناع مزيف من المبادئ والقيم التي لا وجود لها. قمت بالبحث عمن يستطيع أن يسكن في منزل أهلي كي لا يأخذوا الدار وما فيه، وجدت أحد الموظفين الذين هم على صلة مسبقة بوالدي وطلبت منه أن يحافظ على الدار وسوف

أعمل على ترتيب المنزل قبل أن يجلب عائلته.. وافق في الحال لأنه سوف يسكن بلا إيجار أو دفع أي مبلغ مادي لي.

في صباح اليوم التالي أخذني مصطفى وجلب معه أخاه وصديقه وتوجهنا إلى منزل أهلي هناك بدأت رحلة الألم الحقيقي لي بدا كل شيء واضحاً وظهرت أولى معالم الفراق الذي يبدو أنه سوف يطول كثيراً.

وقفت عند باب الدار ممسكة بيد ابنتي فإذا بها تترك يدي وتركض وتطرق الباب وتنادي بأعلى صوتها جدتي ولم يجبها أحد. استدارت وسألتني أين جدتي؟ تأخرت جدتي في فتح الباب.. لم أعلم ماذا أجيبها وأخذت تطرق الباب بقوة وتقول لي هل ستأتي جدتي وتفتح لنا الباب؟ لم أجد إجابة لسؤالها وبقيت صامتة وأغرقت الدموع وجهي وخماري وحجبت الرؤية عن عيني وأخذت أبكي بصمت دون أن يعلم بي أحد.

أخرجت المفاتيح وفتحت باب الدار ودخلت وكأنني أعلن الحداد على حياة قد سبقت وانتهت.

أربع ساعات متواصلة أرتب الدار وأنقل أشياءهم من مكان لآخر ولم تجف عيناي من الدموع ولم يفارقني الحزن. كنت أنظر إلى منزل قديم لم تهتز جدرانه رغم مرور السنين ولم يعرف اليأس طريقاً نحو بابه الكبير. في

زواياه عبق من ماضٍ جميل وألوان الربيع والفرح تجدد البهجة والأمل في كل حين مهما تغيرت الفصول.

لكن ريحاً سوداء عصفت أوصدت الأبواب ووضعت الأقفال.. ساد الظلام واختفى صوت أهل الدار والغبار غطى كل ركن في المكان والعنكبوت نسج خيوطه وهاجرت الفراشات وأخذت بين جناحيها الفرح والألوان.

إذا ما سرت في المنزل معي ستأخذك خطى الأقدام إلى زواياه المظلمة لتجد ذكرى لحزن أو فرح وعلى جدرانه ستجد معي السنين قد حفرت كل ما مضى ومرّ على ساكنيه. ستسمع صدى أصواتهم المختزلة بين الجدران المهجورة هنا في غرفة تسمع ضحكات لفتيات فاتنات وبقايا ألوان للوحات رسمتها إحداهن وورق وكتب لأخرى كانت تدرس وتريد النجاح إنها؛ غرفة أخواتي الصغيرات..

وفي أخرى أصوات لأولاد وتعليق وتشجيع لمباريات وألعاب رياضية وصور لمشاهير كرة القدم علقت على جداران غرفة إخوتي. وفي غرفة ستسمع صوت أنين الأب والدي وهو نائم من شدة التعب وحقيبة عمله مازالت هناك.. إنها غرفة والديّ الحبيبان.

في أرجاء المنزل تسمع خطوات الأم التي لا تطمئن ولا تنام حتى ترى الكل نائم وتتأكد من دفء المكان حولهم وتحصنهم بالدعاء وتصلي ركعتين لله ثم

تنام.. سجادة الصلاة تلك والقرآن بجانب وسادتها إنها أمي عطرها في كل مكان.

لن أنسى ذكرى أختي التي كانت بين الحين والآخر أصوات أطفالها القادمين للدار ضيوفاً من مكان بعيد مع أمهم تعج في الدار تبقى هنا لأيام ثم ترحل بعيداً.

فجأة أخذني الحنين إلى إحدى غرف الدار.. صوت كأني أستمع إليه الآن، نعم، إنه جدي يقرأ القرآن قبل صلاة الفجر وبقربة جدتي تجلس على سجادة الصلاة وتسبّح وتصغي له.. صوت عذب يملأ المنزل بالأمان والسكون والهدوء.. هنا كانوا يجلسون ودعواتهم لنا كانت مثل سفينة نجاة نحو الخير والأمان.

وأرجوحة وسط الدار كلما مرت الريح بها تأرجحت كأنها تنقل أنين اشتياقها وحنين الدار لمغادريها. أزهار ذابلة وأشجار رمت أوراقها على التراب وجفت ثمارها تنتظر عودة من كان بالماء يرويها.

غادروها مسرعين ولم يحملوا معهم أيّاً من ذكريات منزلهم العتيق، خرجوا مرتدين ملابس بالية تخفي جسدهم الذي كان يتمزق حزناً على ما تركوه خلفهم ويسيرون نحو مجهول مغيبين ومبعدين عن أرضهم.. مرغمين مجبرين خاضعين خوفاً من مواجهة الريح التي كلما مرت بحي رمت من فيه

بعيداً وقتلته بصمت وأكملت الطريق غير مبالية لا بطفل ولا عجوز ولا حتى الطيور في سماء الله الآمنة. ساروا على أقدامهم مسرعين وعبروا الحدود مسافات طويلة وحواجز من نار باتت بينهم وبين ذاك الدار.

كانوا متأملي العودة بعد أن تهدأ وترحل بعيداً مهما خلفت بعد مرورها من دمار سيعودون لكنها استمرت وبقوا هم مبعدين وأصبح المنزل القديم ذكرى تروي مراحل طفولتهم حتى كبروا عبر السنين.

الذكرى أبت أن تترك أي ركن وتشبثت رغماً عنه.. سوف تهدأ الريح يوماً وتنتهي وترحل بعيداً وتعود الدار كما كانت حتى لو رحلوا وتركوها فجدرانها ستغدو بأمان لكن الباب سيبقى موصداً فقد انشغل عنه أهله وأصبح مجرد ذكريات.

أربع ساعات مضت وأنا أعمل وأرتب وأعيد الماضي إلى ذهني ويعتصرني الألم ويسكن داخلي، وحين انتهيت من ترتيب الدار تركت كتاب القرآن ودعوت الله أن يحمي الدار لعل الأيام تعيد ساكنيه، وحين هممت بالخروج نظرت لآخر مرة إلى الدار وأودعته في خزائن رب العرش والملكوت وركبت في السيارة مع زوجي والباقين. مررت بمنزل عمي الذي قد أخذوه وقرأت على باب الدار "العقار يعود إلى فلان بن فلان.." تمزق قلبي ألماً وكأنَّ صخرة وضعت على صدري منعتني من التنفس فلم أعد أحتمل الحزن أكثر. هكذا

كانت تمر الأيام بكل قسوة على من فقد عزيزاً أو رحلَ عنه تاركاً ذكرى لا يمكن نسيانها.

في أحد الأيام كان مصطفى خارج المنزل ودخل فجأة مسرعاً وبدا عليه التوتر وسألته: مصطفى ماذا هناك، ماذا هناك؟ أجابني أنهم يقومون بعمل تعداد وحصر للسكان في المنطقة وهم يبحثون عن الشيعة.. أخذنا ننظر لبعض بصمت، ثم قلت له: مصطفى لست خائفة.. الله معنا.. أمسكت بيده قلت له: لا تخف عليّ لن يلمسني بشر ولن يأخذني أحد.. الله موجود.. منذ متى ونحن نلقب بعضنا بألقاب ومسميات اختلقها من يكرهون وحدتنا؟ ضمني إليه بقوة وقال لي: لن يلمس شعرك بشر ما دمت حياً.. فتح باب المنزل ووقف وقال لي: إذا دخل أحد سوف أمنعهم وإذا قتلوني إياك والذهاب معهم. جلست وقلبي يدق بسرعة كأنه يريد الخروج والهرب. احتضنت ابنتي ورحتُ أدعو الله بدون حواجز.. هِمتُ في ملكوته وجبروته وعظمته وطلبته دون سواه ولم يردني إلا بما طلبت منه سبحانه. طلبت أن يبعدهم عنا ويبعد أنظارهم عني وعن زوجي وابنتي.. مرت نصف ساعة كأنها نصف قرن.. مرت بكل ثقل وصعوبة ولازلت أنتظر، وبعد طول انتظار وتوتر وخوف لم يداهم المنزل أحد.. مروا من قرب الحي الذي كنا نسكن فيه، وكأنَّ أعينهم قد عميت تماماً عنا.. دخل مصطفى وعلى وجهه

الفرح والتعجب معاً، وقال: اطمئني حبيبتي لقد ذهبوا من الحي.. حمدت الله وشكرته لأنه كان ومازال معي ولم يتركني.

الفصل السابع

المدرسة

مرت الأيام وكانت القوانين تنهال علينا وكان أكثر ما يشغل أبناء مدينتي هي الوظائف.. الجميع خائف هل يذهب للوظيفة كما اعتاد أم ينتظر الأوامر، أم يسافر ويلتحق بمن هرب خوفاً على عمله ووظيفته؟ قررت أن أباشر بعملي ووظيفتي لأني أعلم أني لن أترك المدينة أبداً وأنا على يقين تام أنّ ما رأيته في حلمي السابق كفيل بأن يفسر لي مستقبلي القادم فأنا أثق بكل أحلامي وأعلم أنها إشارات من الله لعبادة الذين يحبهم ويعلم بمدى ثقتهم به ولطفه بهم. كنت أذهب للمدرسة مع ابنتي الصغيرة ويوصلنا إلى هناك زوجي ويعود بعدها لأخذنا.

في أول يوم وصلت للعمل كان الكل حولي من زميلاتي يرتدون الزي الرسمي الموحد الذي أقره التنظيم.. كان اللقاء في البداية ضحك على ما كنا نرتدي وكل المواقف التي حصلت مع كل واحدة منا في السوق أو الأقرباء بسبب الغطاء الذي لا يجعل المقابل يميز أي واحدة تمشي في الشارع عن الأخرى فقط السواد يجمعنا في المكان. روت لنا إحدى زميلاتي، إنعام، عن موقف حصل لها في المستشفى قائلة: ذهبت أنا وزوجي إلى المستشفى وهناك قال لي زوجي: سوف أذهب لأجلب لك ورقة الدخول اسبقيني إلى الداخل؛ ذهبت ووقفت بقرب غرفة الطبيبة ولم يكن معي هاتفي وعندما دخل زوجي المستشفى لم يستطع تمييزي.. ناداني باسمي بصوت مرتفع لكن أحد العناصر منعه وقال: هذا لا يجوز.. لذلك وقف عند المدخل وأخذ ينادي

بصوت منخفض إنعام، إنعام.. علني أكون بين المارين وأخذ يلوح بيده كي أراه لم يكن يعلم أنني أراه وأضحك كثيراً وأراه كيف يبحث عني بين المرتديات للسواد كان موقفاً لا يُنسى ومضحك، ضحكنا بشدة وذكرت أنا موقفاً حصل معي إذ دخلت أحد الأماكن الصحية في متنزه المدينة العام وحين خرجت رأيت زوجي يسير مع امرأة أخرى خرجت قبلي كان يظنها أنا ناديته مصطفى أنا هنا نظر إليّ ونظر إلى تلك المرأة وشاهد ابنتي وجاء يركض وقال لي: والله ظننتها أنتِ.. ما هذا؟

وكان بين المتواجدات زميلة قديمة لم تعترف بأنها هي زوجة أحد عناصر التنظيم وبينما كانت تخبرنا عن صولات وجولات التنظيم حين يغزو منطقة ما وعن الأموال التي يغدقها على عناصرهم وعن عدلهم وقوتهم وعن أختامهم الخاصة بهم التي رأتها على الرواتب التي يمنحوها لأعضائهم ثم صمتت ولم تكن تعلم أنها كشفت نفسها بهذه المعلومات رغم إنكارها أن زوجها ليس معهم.

دخلت المديرة علينا وكانت ذات شخصية مرحة وبدأت تعرض علينا ملابسها السوداء الجديدة وبعد عدة دقائق من المزاح والضحك طلبت مني أن ألحق بها إلى مكتبها.

ذهبت بالفعل إلى المكتب وقالت لي: أغلقي الباب واجلسي واسمعيني جيداً يا مريم إني سوف أترك المدينة وسوف أقصد إحدى المدن في الإقليم ما رأيك أن تخرجي أنتِ أيضاً؟ كنت في حيرة من أمري تماماً لأني كنت قد نسيت أمر الرحيل وعادت هي وأججت في نفسي الشوق لأهلي ولإخوتي ووالدي كنت أتمنى أن أذهب معها لكن المدينة التي سوف تقصدها ليست ذاتها التي يتواجد أهلي فيها ويمنع العبور منها إلى أي محافظة أخرى لذلك قلت لها لن أسافر معك.. ليس الآن.. لست بخير ولست جاهزة أبداً للخروج.

بعد أيام غادرت المديرة وتركت زمام الأمور إلى إحدى معاوناتها وكانت امرأة مسنة موالية للتنظيم ومحالة للتقاعد لكنها لم تترك الوظيفة بعد.

كانت الأيام قاسية جداً عليّ كنت مثل الذي قد دخل اختباراً اختاره القدر له ولم يترك له حرية القبول أو الرفض.. كنت أقصد مكان عملي بواسطة سيارات النقل، الكيّا، أنا وابنتي لوحدنا لأن زوجي التزم بعمل جديد والطريق طويل وأحياناً أخاف التعرض للمضايقات فلم أكن معتادة التنقل من مكان لآخر لوحدي دون وجود زوجي أو أحد آخر؛ أحياناً والدتي أو والدة زوجي.

في ليلة عيد رأس السنة الميلادية الناس يجهزون للاحتفال بها داخل منازلهم ويهنئون بعضهم بالسنة الجديدة بواسطة الرسائل النصية حيث يتم تبادلها وقد تتكرر عندك الرسالة ذاتها من أكثر من جهة مرسلة لكني أكتب لزوجي رسالة مختلفة نابعة من قلبي ومن حبي الكبير وأرسلتها له وأيضاً كتبت رسالة لأهلي وأرسلتها وكان الكل ينتظر أن تدق الساعة الثانية عشر بالضبط كي تتحرك العقارب وندخل في سنة جديدة نتمنى أن تكون مختلفة وتحمل لنا بين دقائقها وأيامها السعادة والأمان.

كنت في تلك الأثناء وبعد أن كتبت الرسائل بدأت أجهز أغراضي كي أنتقل من البيت إلى بيت جديد يقع في منطقة راقية جداً كنا نظن أننا سنكون فيها بعيداً عن عيون كل من أراد بي السوء والشر.

الكل يحتفل بينما كنت أشاهد التلفاز وأنظم أغراضي وأضعها داخل حقائب وصناديق، كنت أعمل وأبكي وأتذكر أهلي.. فراقهم صعب جداً عليّ وكنت أحس في داخلي أنني لن أراهم أبداً.

دقت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل ومع انتقال عقارب الساعة وتجاوزها للرقم اثني عشر انتقل الزمن بي إلى سنة جديدة وأنا بعيدة عن أمي وأبي وإخوتي.. نظرت لهاتفي رسائلي لم تصل بعد وعلامة الشبكة التي في أعلى الشاشة قد اختفت.. ماذا جرى؟ أطفأت الهاتف وأعدت فتحه من

جديد لازالت العلامة مختفية.. لقد تعطل جهازي ربما.. ذهبت مسرعة إلى من في البيت وسألتهم لأتأكد من الأمر هل هاتفي تعطل أم أن الشبكات قد قطعت بالفعل؟ فقد سمعت من قبل أن شبكات الاتصال سوف تقطع نهائياً.. تأكدت من الكل لكن للأسف كان أمر القطع قد نُفّذ وقد خسرت وسيلة الاتصال وسماع صوت والدي ووالدتي ولا أعلم ما العمل.. بكيت وبكيت مثل طفلة صغيرة فقدت أجمل ألعابها لكن لا فائدة.

حاولت النوم لكن الحزن شديد عليّ.. أحاول أن أتناسى الأمر وأني سوف أتصل بأهلي بوسيلة أخرى إن شاء الله وما بين حزن ودموع وتفكير بالقادم غلبني النوم.

في الصباح استيقظت على صوت مصطفى يناديني ويقول لي: هيا انهضي ينتظرنا عمل كثير.. صاحب سيارة الحمل سوف يأتي لنقل الأشياء والأثاث.. نهضت وبقيت في مكاني لأكثر من عشر دقائق أحاول أن أستجمع قواي وتذكرت مرة أخرى أمر الاتصالات التي قطعت نهائياً ما بين المدينة والعالم.. أخذت نفساً عميقاً وتنهدت بحسرة وقلت: يا الله تركت الأمر لك أصبحنا وأصبح الملك لله صبرني يا رب ووقفت وأعددت الفطور سريعاً وبدأت بعملي مجدداً ونقل الأغراض من الغرفة إلى باب الدار كي يحملها زوجي ويضعها داخل سيارة النقل، رغم كل المتواجدين في المنزل فلم يساعدني أحد..

نقل زوجي كل ما يخصنا إلى المنزل الجديد لوحده ولم يساعده سوى صديق مقرب له وفي آخر الليل ساعده أخوه في آخر سيارة حمل وكانت هذه المرة من منزل والدي الذي يقع في حي بعيد عن منزلي.. كنت أريد نقل أشيائهم الثمينة قبل أن يتم الاستيلاء عليها مثلما حدث مع منازل الكثير من الموظفين الذين تركوا المدينة.

كان الليل قد حلّ حين وصلت إلى منزل والدي لذلك لم يشعر أحد بوجودي في الحي.. لم أكن أعلم أنني مراقبة وأنّ كل تحركاتي مرصودة دون أن أعرف السبب بعد.

طرق زوجي الباب.. فتح الباب أبو أحمد.. رحب بنا وقال له: سوف نأخذ بعض الأشياء من المنزل الآن قال أبو أحمد: تفضلوا إنه منزلكم وأنا مجرد مؤتمن عليه أهلاً وسهلاً بكم.

بدأت بجمع الأشياء المهمة الثمينة بسرعة كي أترك المنزل قبل أن يشعر بنا أحد ويبلغ عناصر التنظيم ويمنعونا من نقل الأشياء ونعاقب أيضاً.

أكملنا حمل الأشياء ووضعها في السيارة وغادرنا المنزل وتركنا المنطقة وكل شيء بخير والحمد لله، اتجهنا نحو منزلنا الجديد.. وصلنا هناك وأكملنا نقل الأشياء إلى الداخل كان الجو بارداً جداً والسماء تمطر فقام أصحاب المنزل الذين استأجرت منهم الطابق الثاني من منزلهم المنزل الذي استأجرته كان

عبارة عن بيت ضخم يتكون من طابقين منفصلين عن بعضهم استأجرت أنا الطابق العلوي لأنه كان خالياً وليس فيه أحد.. جلب لنا مدفأة وعشاء وكانوا كريمين جداً.. بدا ذلك واضحاً من خلال ما أعدته الحاجة أم سعد لنا من طعام يكاد يكفي لعشرة أشخاص ونحن فقط أربعة أشخاص أنا وزوجي وأخوه وابنتي أوصل لنا الطعام صبي في الثالثة عشر من عمره وقال لنا إذا احتجتم لأي شيء اطرقوا الباب الذي في نهاية الممر هذا سنسمعكم وسنكون في خدمتكم.

رحل أخو زوجي وبقيت أنا ومصطفى وابنتي بين أكوام من الأشياء واقفة أفكر كيف سوف أنهي عملي وإن بعد يوم واحد فقط سوف أعود لوظيفتي وعملي وأنا أقضي فيه أكثر من نصف اليوم، لذلك أنا الآن في دوامة واخترت أن أنظم بسرعة الغرفة الخاصة بالنوم كي أنام اليوم وآخذ قسطاً من الراحة وأصحو مبكراً غداً، وأعمل بسرعة قصوى قدر الإمكان.

مرت أولى أيام انتقالي إلى المنزل الجديد بصعوبة بسبب بعد المنزل عن مكان عملي وبسبب تأخير الرواتب المستمر الذي أثار قلقي جداً.

كان زوجي يقلني وينتظرني في مكان عملي في البداية مثلما ذكرت سابقاً لكن وبعد أيام قررت أن أذهب لوحدي أنا وابنتي لأن مصطفى وجد عملاً جديداً لأن الراتب الشهري لم يعد مضموناً وبدأت أستقل سيارة

(الكوستر) التي تقل أكثر من أربعة وعشرين راكباً كي أضمن أن لا أبقى لوحدي مع أي غريب حتى السائق. كنت أستقل السيارة لمدة تزيد عن الخمسة وأربعين دقيقة، وكانت المديرة المسؤولة عني لا تتفهم مدى صعوبة الطريق وظروفي الصعبة ولم تساعدني أبداً، بل كانت في كل يوم تثير مشكلة كبيرة لي وتهددني بكتابة تقرير عني وتأخذه إلى مديرية التربية التي كانت تدار وقتها من قبل التنظيم.

لذلك قررت أن أنتقل إلى مدرسة قريبة من منزلي الجديد لكنّ الأمر كان صعباً جداً فليس لدي أحد أتوجه إليه لذلك قررت أن أذهب إلى المديرية والمكتب المسؤول.. كان الدخول إلى المديرية بدون محرم شيئاً مستحيلاً.. وقفت طويلاً بقرب بناية المديرية وكتبت عريضة وذكرت فيها أنني لا أمتلك نقوداً كافية للتنقل المستمر بسبب انقطاع الراتب وأيضاً أنني لوحدي مع طفلة صغيرة. توجهت إلى الاستعلامات أردت الدخول لكن أحد الموظفين الواقفين هناك منعني وأخذ يصرخ بوجهي بطريقة غير لائقة وغير محترمة لم أنتبه له في البداية ولكن بعد أن أطلت النظر إليه تذكرت وجهه وأنه قبل سنة أو أكثر ألقى التحية عليّ وعلى والدي وذكر أفضال والدي عليه وتفاجأت كيف أنه أعلن ولاءه التام للتنظيم بعد أن تغيرت الظروف، لم أتردد في مناداته دون خوف قلت له تعال إلى هنا ألست فلاناً؟ ألست كنت تقف فيما مضى في نفس المكان لكن في ظروف مغايرة؟

تفاجأ وبدأت تعابير وجهه تتغير لأني كشفت حقيقته وقال: نعم أهلاً بحضرتك أنا أعتذر لكن هنا التنظيم يمنع دخول النساء بدون محرم كما تعلمين.. قلت له أعلم ذلك لكن قالوا لي أن وكيل المدير المسمى... ينزل بنفسه لمقابلتي في الشارع وأمام الناس حين يعلم بضرورة اللقاء.

قال حالاً سوف أرفع طلبك وذهب مسرعاً ودخل البناية.. انتظرت لدقائق وإذا به يتوجه إليّ مع شخص ذي ملامح وجسد ضخم جداً يرتدي السواد ولحية طويلة يحمل السلاح.. وقف بقربي كدت أتلعثم بالكلام ولم أعلم ما الذي يجب أن أقوله رغم أني قد جهزت مسبقاً كلاماً مناسباً وأنا أعلم أن نفس الرجل وأشباهه من التنظيم هم من أخذوا عمي ونحروه بلا شفقة ويبحثون عن بقية أهلي لكني تماسكت وتمالكت أعصابي واستجمعت قواي ولكني أخطأت في الحديث معه دون أن أنتبه وقلت له: قالوا لي أنني إذا ما أردت أن أنتقل لمدرسة قريبة علي أن أقصد حضرتك لأنك تفهم مطلبي قالوا عني رافضية ولأن والدي قد رحل بسبب مرض والدتي ليس لأنه هرب منكم.. كنت أحاول أن أنقل له أننا لسنا معترضين على تواجدهم لأني كنت أعلم مدى ظلمهم.. طلبت منه أن يساعدني.. نظر إليّ وكانت نظرته لي كأنها نظرة الموت الذي وددت لو أني أهرب منه بسرعة، قال وهو غير واثق من كلامي تماماً أنه هو أيضاً بدون راتب وأننا يجب أن نتحمل لأجل الإسلام ونصرة الدين. قال لي اتركي عريضتك هنا وسوف نرى وتركني

واتجه نحو البناية. كانت دقات قلبي وأنفاسي تسابق خطوات أقدامي وتريد الخروج بسرعة وما أن وصلت باب الخروج إذا به يناديني بصوت مرتفع وطلب مني العودة وقال لي أن أكتب كل شيء بالتفصيل كأنه انتبه لاسمي.. كنت متأكدة أن هناك أمراً مريباً وأنه تعمد سؤالي.

عدت إلى المنزل منهكة وخائفة جداً وفي حيرة من أمري لأن كل ما يخصني من معلومات عن مكان عملي وعن والدي أيضاً بات في أيديهم فكرت في ترك الوظيفة لكن ماذا سوف يترتب عليها من مخاطر وماذا ستكون ردة فعلهم لأني سأكون متمردة على قوانينهم ورافضة لكل منهجهم لذلك كان يجب أن أفكر ملياً في الخطوة التالية التي سوف أقوم بها.

مع ذلك لم أدع اليأس يتسلل داخلي وحاولت في اليوم التالي أن أطلب من المديرة أن تساعدني لكن دون جدوى.. كانت إنسانة عديمة التفهم.. المجهول والخوف الدائم هو محور حياتنا الذي لا مفر منه ولا حل لتلك الألغاز.

ومما زاد بطء وقسوة الحياة أكثر عليّ حين فتحت رسائل واردة من برنامج (الواتساب) كانت صديقتي المقربة إيمان سألتني عن أحوالي وكيف أعيش وأين أنا الآن؟ فرحت بها وأجبتها على الرسائل وأخبرتها أن النت كان مقطوعاً في منزلي فأجابتني في الحال وكانت هنا الصدمة أنها قد تركت

العراق وهي الآن مع زوجها وأطفالها في تركيا. كان وقع الصدمة كبيراً جداً.. التزمت الصمت طويلاً ولم أقوَ حتى على البكاء. خسارة أخرى بعد أن خسرت أهلي أعمامي والآن صديقتي وأختي المقربة، حتى أني لم أسألها لماذا لم تخبرني برحيلها وأنها قالت لها لي لن أرحل دون أن تأتي معي. كانت الصدمة كافية أن تبقيني بعيدة عن أي نقاش أقفلت الخط وجلست دون كلام ولم أخبر أحداً بأي شيء. تذكرت كيف أنها زارتني كي تطمئن عليّ وكيف أني قد بحثت عنها وذهبت لمنزل والدها وأخذني معه إلى منزلها كي أطمئن عليها كان حزني لا يوصف.

روت إيمان قصة هروبهم وإنها بالفعل قد بحثت عني بعد أن سألت عني في مكان عملي ولم يعرف أحد عنوان منزلي الجديد والاتصالات مقطوعة فلم تتمكن من الوصول إلي. كانت قصتها مشابهة لقصص كل من كان يهرب وقتها من المدينة إلى تركيا.

روت إيمان ما جرى لهم وقالت: قسمنا المهربون إلى مجموعتين كلاً على حدة واللقاء في نقطة معينة. في البداية خرج زوجي وأولادي وإخوتي مع أحد المهربين في الساعة الثالثة عصراً.. أنا وإخوتي وأولادي اتجهنا إلى خارج الموصل إلى قضاء بعاج بالتحديد هناك صادفنا نقطة تفتيش وقلنا لهم أننا ذاهبون لتقديم العزاء لأقاربنا. ومن هناك توجهنا نحو سوريا.. وصلنا الحسكة وبقينا فيها ليلة كاملة في إحدى المدارس. كان هناك اللقاء بين

المهربين مع بعض لتسليم الهاربين من جماعة إلى أخرى، وفي اليوم الثاني لحقنا بهم أنا وأخوات زوجي وأمه وأبيه بسيارة خاصة وبعد أن وصلنا للحسكة وتم اللقاء بقينا هناك ليلة أخرى برفقة زوجي وإخوته اجتمعنا كلنا في الحسكة وفي صباح اليوم التالي خرجنا وتوجهنا نحو مدينة الرقة السورية ومن هناك توجهنا إلى منطقة تل أبيض التي تقع بين الحدود التركية السورية وبعد صلاة المغرب جاء المهرب وقال جهزوا أنفسكم كي نعبر الحدود سيراً من خلال معبر هو عبارة عن خندق بعمق مترين وعرض أربعة أمتار وبالفعل ما أن أصبحنا في الخندق بدأت الجند رما التركية بإطلاق النار في الهواء لأجل إخافة الهاربين ولكن الكل صمد واستمر ولم نعد إلى الوراء أبداً وكنا حوالي ثلاثة آلاف عائلة أي إن المكان مكتظ بالبشر. كنا نتبع المهرب كي نجد ثغرة ونعبر الحدود بخير. هناك أثناء السير صرخ أخو زوجي وقال: أمي أين هي ليست معنا أين هي؟ فأصبح الكل يصرخ باسمها ويبحث عنها إلى أن سمعنا صوتها تقول أنا بخير أنا داخل الخندق أنا هنا وجدناها وبقينا دون حراك لأكثر من نصف ساعة إلى أن رحل الجنود الأتراك وجدنا أن بعض أغراضنا قد سرقت وفقدنا الكثير منها أثناء الهرب والفوضى وكان أبي يقول لنعُد إلى الموصل يجب أن لا نكمل الطريق لكن زوجي أخبره أننا حين خرجنا من الموصل لم ينتبه لنا أحد وإذا ما عدنا سوف يعرفون أننا حاولنا الهرب وسوف يقتلوننا هنا وإذا بأختي تقول فقدت حقيبة الذهب عاد زوجي كي يجدها وحين عاد أصبحنا

فريقين أنا وزوجي وبقية النساء سرنا وأكملنا الطريق وبقيت أمه وأبوه وإخوته الاثنان خلفنا لأن أمه كانت مصابة بسبب سقوطها أثناء الهرب في الخندق وجدنا الطريق إلى داخل تركيا عبر بستان يربط بشارع تقف فيه سيارات لنقل الهاربين. كنا نسير تارة ونجلس تارة أخرى كي لا يرانا الأتراك إلى أن وصلنا إلى الشارع المقصود. أوقف زوجي سيارة تكفي لنقل أربعة عشر شخصاً استأجرها وانتظر أمه وأباه وإخوته لكن دون جدوى أصبحت الساعة الواحدة ليلاً ولم يظهروا بعد. فإذا بشاب يخرج من البستان سأله زوجي عن أهله وقال له أن الاتراك أمسكوا بهم وأعادوهم إلى سوريا. هنا كان وقع الخبر كبيراً على زوجي لم يعرف ما العمل وكيف، إنه نادم الآن لأنه لم يسمع كلام أبيه ولم يعد إلى الموصل، وهنا قال لي زوجي سوف أوصلكم عند أخي الذي ينتظرنا وكان أخوه قد سبقنا بالهرب بثلاثة أشهر وقال ابقوا معه وأنا سأعود للبحث عنهم. اتصل بأخيه الذي يسكن في مدينة مارسين وقال له أنا بانتظارك في (أورفة) أمك وأبيك وإخوتك بخير لقد اتصلوا بي قبل قليل. وصلنا أورفة وهناك بين بكاء الأطفال وحالة الذعر الذي أصابهم مما شاهدوه والبرد القارس في الشارع أصبحت الساعة الرابعة فجراً. اتصل شخص بأخ زوجي وقال جهزا المال كي أسلمك أهلك وصلوا وكانوا في حال يرثى لها وبعدها انتقلنا إلى مدينة مارسين.

حاولت إيمان كثيراً أن تقنعني باللحاق بهم عن طريق نفس المهربين وقالت أن زوجها سوف يرسلهم إلينا وبالفعل اتفقت أنا وزوجي معها وتواصلنا مع المهرب ولم يعطنا موعداً محدداً خوفاً من أي كمين وكنت جالسة في أحد الأيام فاتصلت بي وقالت جهزي نفسك؛ المهرب قريب منكم سيصل بعد نصف ساعة وأقل، وبالفعل وصل المهرب وكان معه سائق. ارتبكت كثيراً ووقف زوجي معهم لحين تجهيز نفسي سألهم عن التفاصيل للسفر ولم يجيبوه لأن السؤال ممنوع وطلبوا منه أن يرتدي زياً عربياً وهو الدشداشة ويجب أن تكون متسخة. كنت متوترة وتأخرت في تجهيز نفسي بالفعل، لذلك قام المهرب بإلغاء الموعد وتأجيله إلى اليوم الثاني صباحاً وهذه المرة نحن من سيذهب إليهم لم أعرف سبب التأجيل. كان يخاف علينا من المهربين كانت أشكالهم غريبة بالفعل ومثيرة للريبة والشك لا تعلم مع من هم ولصالح من يعملون. لذلك بعد ليلة طويلة من التفكير نجح مصطفى في إقناعي بعدم الذهاب وذهب في الصباح إلى المكان المحدد واعتذر منهم ولم نذهب. كان أملٌ آخر قد انتهى للخلاص ولقاء أهلي. لكن لم يكن يعرف مصطفى بكل التفاصيل، فلم أقل له شيئاً عن المخاطر التي سنواجهها، وبالفعل كانت عملية التهريب قد تغيرت وأن الرجال سوف يصعدون على دراجات نارية والنساء في سيارات لحمل الخضار والفواكه وسنلتقي في مكان معين في (بعاج) ومن هناك نجتمع في سورية وندخل الحسكة والرقة وفي الطريق إذا واجهنا الجيش الحر نقول

أننا هاربون من التنظيم وإذا ما قابلنا عناصر التنظيم نقول أننا هاربون من الجيش السوري ومن هناك يأخذونا إلى منبج ومنها إلى داخل تركيا بعد النجاة من الرصاص التركي.

الفصل الثامن

ما وراء الحدود

حين جاء التنظيم وفي بدايته لم يعترض على أي منهج دراسي كان تتبعه المدارس لكن بعد ذلك بتوجيه من مدير التربية الأردني الجنسية طلب من مدراء الأقسام وكل المشرفين أن يحضروا اجتماعاً خاصاً يترأسه هو بنفسه. وحصل خلال الاجتماع أن وجّه بعزل الذكور عن الإناث في مديرية التربية بكل كوادرها وتدرسيها وطلابها وصدرت الأوامر وعلى الجميع التنفيذ ولا وجود لما يسمى الواسطة أو التفضيل لأي شخص مهما كانت صلته من أي مدير أو مسؤول، ومن يحاول أن يكون مفضلاً تأتيه العقوبة مباشرة بالجلد والحبس.

وقام بتوجيه المشرفين من كلا القسمين التربوي والاختصاص أن يتوجهوا إلى المكتبة المركزية العامة دون استثناء لأي شخص ولأي سبب كان ولمدة تجاوزت الشهرين وكان المطلوب منهم هو تغيير المنهج الدراسي وفق مختصين من التنظيم، وهذا ما شكل صدمة كبرى لأن هنا قد وقع الكل في دائرة الخطر الكبير إذا ما انسحب أي شخص يتهم بالتمرد ويرفع الاسم إلى ديوان التربية وطبعاً عن طريق المندسين الموالين، وإذا ما وافق يتهم أيضاً ويرفع اسمه إلى الحكومة كونه ساندهم وتعاون معهم.

لذلك كان أغلبهم يلتزم الصمت خوفاً من نحرهم بالحال وهذا ما قاموا به بالفعل مع إحدى المعلمات اللواتي رفضت كل ما تم طرحوه فقاموا باعتقالها

وقتلها في الحال كما قتلت العديد من المشرفات بحجة أنهنَّ كنَّ مرشحات على مجلس النواب.

عمل الجميع بصمت وكانت إحدى المتواجدات هناك تنقل الحدث وتقول أنّ المنهج ليس سوى مهزلة وتلاعب بعقول الأطفال ولم يتم توزيع الكتب على الطلاب بل اتخذه التنظيم مصدراً جديداً لجمع الأموال حيث قام ببيع الكتب لقاء مبالغ تصل إلى أربعة عشر ألف دينار في وقت كان الناس في بداية معاناتهم، وهذا ما أدى إلى إجبار الأهل لأطفالهم بترك المدارس إذا ما لم يقدروا على توفير الكتب. وبعد أن توفرت الكتب واطلع عليها كل الناس عمد الكثير إلى عدم إرسال أطفالهم إلى المدرسة لأن المنهج يحث على العنف وبعيد جداً عن العلم والمعرفة بكل الأشكال كما بدأت الكوادر التدريسية بترك المدارس وهذا ما أدى إلى خلق فوضى وموت للحياة بكل معنى الكلمة وهذا ما كان للتنظيم محال أن يسمح به أبداً لذلك قام التنظيم بتصدير أوامر بأنَّ من يمتنع عن الدوام سوف ينحر في الحال حيث يجدوه.

وبالفعل قام التنظيم بشن حملة مداهمة للتفتيش عن كل الهاربين، وهذا ما جعل الكل يعود إلى الدوام والبعض الآخر اختار الهرب خارج المدينة عن طريق سلك طرق خطيرة جداً تمتد من الموصل مروراً ببعاج والعياضية وسنجار وصولاً إلى حدود سوريا ومن هناك إلى الرقة وإلى منبج. إحدى المعلمات التي أرادت الهرب هي وزوجها وابنها وابنتها حاولت ولكن ما أن

وصلت إلى الحدود كانت قد أعطت كل الذهب وكل ما تمتلكه من أموال ووضعته في حقيبة حملها زوجها ووضعها تحت ملابسة وهناك عند الحدود قبل أن تنال الحرية لم يتبقَّ سوى أمتار قليلة وإذا بلغمٍ أرضيّ ينفجر عليهم ليقتل زوجها وابنتها ويتركها جريحة مع ابنها الذي فقد أطرافه، وبهذا تكون قد خسرت زوجها وابنتها وكل ما يملكون لتعود بطفل بلا أطراف مقعد ولا أي دينار واحد معها. عادت إلى المدينة تجر حزناً كبيراً لا مثيل له؛ هربت من الموت فلحق بها إلى ما وراء الحدود ليسرق جزءاً من حياتها ويترك لها جزءاً من جسد تطايرت أجزاءً منه تاركة إياه بلا أمل.

معلم كنت أراه منذ أن كنت صغيرة صديق والدي أرسل عائلته إلى خارج المدينة كي يؤمن لهم حياتهم وبقي هو كي لا يتم مصادرة منزله وما يملك ويمنعهم من الاستيلاء عليه لم يتحمل فراقهم ومات بعد أن رحلوا بأيام وحيداً ليس بقربه أحد. وأيضاً أحد عمداء كلية في جامعة الموصل حين اشتد الأمر ولم يبقَ باليد حيلة أرسل عائلته عن طريق مهربين خارج المدينة وبعدها بأشهر استطاع اللحاق بهم لكنه من شدة ما رأى وقاسى ومن شدة حزنه على ترك المدينة مات بعدها بفترة قصيرة أيضاً وخلف الموت أبناء مدينة مهما كان الثمن سواء اختاروا البقاء أم الهرب.

كان التنظيم يزيد من أساليبه القسرية والوحشية ضد الناس العزل لذلك كان الكثير يقومون بترك المدينة وذلك بطرق غير شرعية حيث يقوم أحد

تجار الخضار بالاتفاق مع أحد عناصر التنظيم ومع أشخاص من قرية تقع بالقرب من الحدود السورية ومع أشخاص يعملون في آبار النفط أو الحراقات كما يقال عنها ويقومون بتهريب العوائل والشباب باتباع إجراءات عديدة في النهاية توصلهم أو تقتلهم.

صباح أحد الأيام وصلت المدرسة وبينما كنت واقفة في أحد الممرات مع زميلاتي قبل أن يحين موعد الدرس، دخل عناصر من التنظيم إلى المدرسة وكنت بلا درع وبالفعل انتبهوا إلى الدرع، أقصد به هنا هو قطعة قماش سوداء فضفاضة جداً وعريضة نرتديها فوق العباءة السوداء.. أسرعت إلى الطابق الثاني وأرسلت إحدى التلميذات إلى زميلتي أم عثمان المقربة مني جداً وقلت لها اطلبي الدرع منها بسرعة هو بقرب الحقيبة أسرعت التلميذة اليها وبالفعل جاءت أم عثمان وجلبت معها الدرع كانت تركض وسألتني ماذا هناك التلميذة قالت أنكِ تريدينني وبسرعة، ماذا يجري؟ قلت لها: انتظري دعيني أرتدي الدرع كما نسميه وخلعت سترتي الملونة ووضعتها في كيس أسود وطلبت من أم عثمان أن ترميها في سلة المهملات التي في باحة المدرسة ولم تترد أم عثمان أخذتها مسرعة بلا تردد.. عادت بعدها بدقائق وقالت لي: إنهم يبحثون عنك لقد ذكروا لون ملابسك وطلبوا رؤيتك وسألوني وقلت لهم لا أعرفها ربما إنها إحدى التلميذات وبالفعل وبعد ذلك بدقائق صعد عناصر التنظيم إلى الطابق حيث كنت أنا

في إحدى الصفوف وبعد أن أنهوا حملة تفتيش وبحثوا عني في الطابق الأول دخلوا إلى الصف الذي كنت فيه ولكنهم لم يميزوني بسبب تشابه الزي الذي نرتديه جميعاً بعد ذلك عادوا إلى غرفة الإدارة، وبدأوا يسألون عمن كانت ترتدي السترة الزرقاء مجدداً فأجابت زميلتي كانت إحدى الطالبات ولم تكن من الكادر التدريسي أبداً.

خرجوا وهم غير مقتنعين بما سمعوه ولم أعلم سبب سؤالهم عمّن كانت ترتدي السترة إلّا بعد مرور فترة طويلة سوف أرويها لاحقاً. كانت ملاحقتهم لي غير واضحة أمامي أبداً، لم أكن أعلم أبداً أنهم يبحثون عني.

بعد مرور أيام من تقديمي لطلب النقل وبحثي عن من يساعدني كنت أتحدث مع أم عثمان عند باب الصف فكانت إحدى الفتيات تسترق السمع فإذا بها تأتي مسرعة إليّ وقالت لي: ست مريم أنا أعلم أن والدك وأهلك قد نزحوا والتنظيم قد استولى على القرية التابعة لكم ولم يبقَ لكم شيء هناك وتحدثت عن أمور كثيرة كنت ابتسم واجعلها تحس بأني مسرورة بكل ما يجري تحدثت مطولاً معها عرفت من تلك التلميذة أن والدها مسؤول عن إحدى مؤسسات الدولة وهو مسؤول عن القطاع الذي تقع فيها مدرستها لذلك قالت لي سوف أخبر والدي عن طلبك للنقل كي يساعدك وبالفعل في اليوم التالي جاءت الفتاة تلك وقالت لي لقد أخبرت والدي وأعطيته اسمك الكامل لأنني أعرفه وأعرف أين يقع منزل والدك

أيضاً وقفت مذهولة وغير مطمئنة أبداً وقلت لها حسناً سوف أعطيك ورقة فيها طلب النقل فأجابتني: لا.. لا داعي، إن والدي ينتظرك في مكتبه الذي يقع في الجانب لأيمن الآن.. قلت لها: لا أستطيع فلا وقت لدي اليوم لأني مريضة كانت مجرد حجة كي أمتنع عن الذهاب لأني أشك في نواياها حقاً.

وتكرر طلب الفتاة تلك وإلحاحها وأن والدها ينتظرني وقالت لي سوف آتي معك أنا وآخذك إلى مكتبه.. تكرر الطلب مجداً ومرات عدة ولمدة أسبوع كامل وأنا أحاول التهرب كل يوم منها وبعدها قالت لي في أحد الأيام: غداً والدي سوف يأتي إلى هنا كي يقابلك.. صدمت وعرفت أن هناك أمراً يدبر لي ولا بد لي أن أفعل شيئاً لكن لا أعلم ما هو.. التفكير يخونني ولا أعرف ما العمل.

في اليوم التالي ذهبت إلى عملي كالمعتاد وتركت كل شيء كما هو دون أن أفكر.. دخلت المدرسة وبعد ساعات دق جرس المدرسة معلنا عن نهاية الدوام وبينما كنت أهم بالخروج فإذا برجل يقف عند الباب معه اثنين من المسلحين وكانت تلك التلميذة معهم عرفت أنه والدها.

توقفت لثوانٍ ثم أسرعت راكضة باتجاه ابنتي الصغرى كي آخذها فإذا بالفتاة تبحث عني وتسأل الكل عني اختبأت خلف أحد أبواب الصفوف الفارغة

وطلبت من ابنتي أن تلزم الصمت. كادت أنفاسي أن تفضحني وتكشف عن مكان تواجدي.. شعور من الخوف والرهبة من المجهول لا يوصفان، وما إن ابتعدت هي وهدأ المكان خرجت بهدوء عبر الممر الطويل الذي يفصل المدرسة عن ساحة خلفية وبقربها باب لا يستخدم إلا لحالات خاصة. طلبت من حارس المدرسة أن يفتح لي الباب كي أخرج بسرعة لأن زوجي ينتظرني في هذا الشارع بسيارته. لم أعد أثق بأحد وكنت أخاف من أن يخبرهم الحارس عن مكان تواجدي لأنه كان بالفعل متواطئ معهم جداً. فتح الباب وخرجت راكضة دون توقف واتجهت نحو طريق خالٍ وترابي عبارة عن منطقة خالية تماماً تفصل ما بين الحي الذي تقع فيه مدرستي وحي يصل بها إلى بيت عمي أخو والدي. أخذت أركض مسرعة ممسكة بيد ابنتي وأنظر خلفي. ابتعدت قليلاً فتوقفت لكي ألتقط أنفاسي التي أصبحت مثل سكين يغرس في صدري من شدة التعب، ثم حملت ابنتي وبدأت أسرع أكثر وما بين تلك اللحظات كان الخوف على صغيرتي يكاد يقتلني تماماً لكني قاومت وأسرعت أكثر إلى أن وصلت إلى بيت عمي. طرقت الباب ودخلت دون أن أنتظر. صعدت الدرج رآني عمي فأخذ يبكي هو وأنا أبكي لم أرَهم منذ أن دخل التنظيم المدينة ومرت كل تلك الأحداث. طلب مني أن أبقى عنده لكني رفضت قلت سأرتاح قليلاً، وبعدها سوف أذهب إلى البيت ولن أعود للمدرسة مهما كلفني الأمر.. لن أعود أبداً. بعدها بساعة

قام عمي بأخذي إلى المنزل. حين وصلت أقفلت كل الأبواب وانتظرت عودة زوجي لأخبره بما حصل.

بعد ذاك اليوم المريب قررت أن لا أذهب إلى المدرسة وامتنعت لعدة أيام فقامت مديرة المدرسة بالبحث عني في الحي كي تعرف أين هو منزلي بالضبط بحجة أنها تريد مساعدتي مادياً لكنها كانت تريد الإيقاع بي. عرفت ذلك حين قررت في أحد الأيام أن ذهب إلى منزل صديقتي الواقع بالقرب من المدرسة بعد انقطاع دام لمدة ستة أيام عن الوظيفة فأخبرتها أن هناك أمر مريب يحدث في الخفاء وأنّ هناك من يدبر للإيقاع بي.. كانت شبكات الاتصال تتواجد في أماكن دون أخرى وكان يجب أن يتخفى من يريد الاتصال وألا سوف يعتبر أنه ينقل الأخبار وكل ما يجري في المدينة إلى من خرج منها. قمت بالاتصال بأهلي من منزل صديقتي وأردت أن أقول لهم أني سوف أترك المدرسة بحجة أني سوف أسافر. قبل أن أبدا بالحديث سبقتني والدتي وقالت لي يابنتي اتركي المدرسة ولا تأتي إلى هذه المنطقة أو تزوري منزلنا القديم لأن هناك من أوصل لنا الخبر أنّ هناك من يريد الإمساك بك؛ اهربي ولا تعودي أبداً ومن يسأل عنك فليخبره زوجك أنك سافرتِ إلى تركيا.

لم يقتصر إلزامهم لموظفين الدولة التربويين فقد كان لديهم قوائم بأسماء كل من في المدينة من أطباء ومهندسين ومثقفين وعلماء وباحثين كانوا

يقصدونهم لأجل التعامل معهم ومن يرفض كان في بداية الأمر يوضع تحت الإقامة الإجبارية والحراسة المشددة وأذكر من بين أولئك بروفيسوراً من مدينتي خبير في الشؤون القانونية عرضوا عليه التعاون معهم لكنه رفض بدون خوف وحين رفض أخذوه إلى السجن وعرض على القاضي ومن الصدف التي تترك الأثر في النفس أنّ القاضي هو تلميذه الذي كان له الفضل عليه في إكمال دراسته وأخذ الشهادة العليا بفضله وتعينه أيضاً. رموه أمامه.. لم يحتمل القاضي وبكى ورفعه من الأرض وقال له البروفيسور وهو يقف بشموخ ودون خوف هكذا تعاملون من علمكم؟ هذا جزاء الإحسان؟ طلب منه أن يتعاون معهم خوفاً من قتله فرفض ووضعه تحت الإقامة الجبرية لمدة ثلاث سنوات وكانت سيارة تقف في باب داره كي يمنع هربه أو أي محاولة لخروجه من المنزل.

وكان أحد الباحثين المرموقين من المدينة والذي له شهادات براءة اختراع هو من يبحثون عنه لكن زوجته نجحت في إخراجه من المدينة بأعجوبة وعادت هي لتبقى مع أولادها وحين يداهم البيت بحثاً عنه تقول أنه راقد في إحدى مستشفيات في بلد آخر.

الفصل التاسع

عقول جائعة

باتت مدينتي مرتع لهم وكأنهم هم أصحاب الأرض والقرار بعد أن تخلى الجميع عن المدينة وأهلها وكل من رفض أن يتركها. كان تواجدهم يزداد قوة يوماً يعد يوم وبدأ المهاجرون بالتوافد ممن أعلنوا ولاءهم للتنظيم وإيمانهم بالفكر الذي يحمله. رأينا مثلما ذكرت سابقاً كل الجنسيات من أبعد نقطة من بقاع الأرض يأتي متلهفاً لا نعلم هل يأتي لأنه بالفعل يؤمن بفكر التنظيم أم أنهم مجرمين هاربين من بلدانهم وجدوا أن المدينة التي أعلنت الخلافة من منابرها هي أفضل مكان يوفر لهم السكن والمال والحماية والعيش الرغيد أم أنهم أفراد من عصابات كبيرة أو مرتزقة جاؤوا بسبب الأموال التي سمعوا عنها وعن الخير الوفير الذي تمتاز فيه المدينة وبالفعل كانوا يرددون قولًا شائعاً ألا وهو أن أموال أبناء الموصل لا تنتهي أبداً فمهما سلبوا من أموالهم فهناك المزيد ويجب أن يأخذوا كل شيء، أم أنهم قدموا لأجل ما تحت الأرض والحلم المنشود الذي لأجله يفعلون كل شيء..!

روت لي صديقتي ما سمعه أخيها حين كان جالساً في أحد المطاعم وكان يجيد اللغة الفرنسية بطلاقة. كان جالساً في أحد المطاعم وكان على الطاولة المجاورة له عناصر من التنظيم من الجنسية الفرنسية كانوا يتكلمون ويأكلون بشراهة كبيرة ويضحكون؛ قال أحدهم إن هذه المدينة مليئة بالأموال وأهلها أغنياء جداً وفيها من الآثار ما يغنيننا عن أي بلد، وبالإضافة إلى أن لا رجال فيها. كان الرجل الموصلي يأكل ويستمع لقولهم

وحين وصل لتلك الجملة أنّ لا رجال فيها دمعت عيناه من شدة الألم وترك الطعام وترك كل المكان وخرج مسرعاً.. لحق به أخيه وقال له ماذا حدث لك قال له ما سمعته أن مدينتي ليست خالية من الرجال ولكن تلك القوة التي احتلتها والتي جثمت على صدور أبنائها كانت تمتلك معدات عسكرية ضخمة وكثيرة كانت تعود للجيش العراقي الذي انسحب وترك كل تلك المعدات التي كانت كافية لشن الهجمات والغزوات وإسقاط الكثير من المدن والأراضي فيما بعد فكيف لأناس عزل ورجال مهددون بالذبح وانتهاك الحرمات والإعراض وهم قلة قليلة أن يواجهوا تلك القوة والوحشية التي يمتلكوها إذا ما كانت الدولة نفسها قد تركتهم يواجهون الأمرين لوحدهم دون حول ولا قوة. وهذا ما شجع الكثير من ضعاف النفوس والجائعين وممن قتلهم العوز إلى الانضمام إليهم بعد أن أغدقوا عليهم الأموال ومنحوهم المنازل والأثاث وقاموا بتزويجهم ومنحهم كل ما يحلمون به.

كان الكثير من الجند ممن يسكنون ذات الحي يأخذون الراتب المخصص لهم يسرعون إلى محلات بيع المواد الغذائية واللحوم والمطاعم.. يبتاعون كل ما طاب لهم ويشبعون عوائلهم. كنت في حيرة أن أحزن على ما أصابهم وعلى ما قد آل إليه وضعهم أم على الفقر والجوع الذي نهش بجسدهم وأثر على عقولهم التي غسلت واختارت طريق الهلاك.

أذكر قصة لسائق تكسي بسيط وطيب القلب كان يسكن في حينا يعمل ليوفر قوت يومه وإذا جلس ولم يعمل لا يأكلوا وينتظروا حتى اليوم التالي وكان طعامهم بسيطاً جداً يسد جوعهم وعوزهم. كان له ولدان شابان وبنت متزوجة نزح في بداية الأحداث إلى أحد المحافظات الشمالية ولكن أحد أبنائه اسمه خالد عاد بعد أيام إلى الموصل ورفض أن يلتحق بأهله مجدداً مما اضطر والده إلى أن يعود خوفاً أن يتركه لوحده، وما أن دخل المنزل حتى وجد ملابس غريبة الشكل وسلاح وأشياء لم يرَ مثلها من قبل وإذا بابنه يفتح باب الغرفة. نظر إليه الأب طويلاً وباستغراب والأم أيضاً.. الصمت كان طويلاً ثم سأل ابنه لمن هذه الملابس والمعدات والسلاح؟ أجابه بثقة كبيرة وبنبرة ليس فيها تراجع أو استسلام: إنها لي لقد بايعت الدولة الإسلامية وأنا الآن من الجند والشهادة في سبيل الله هي مطلبي.

حاول الأب أن يجعله يتراجع عن قراره لكن دون جدوى. في أحد الأيام طلب من أخيه أن يوصله بدراجته النارية إلى المقر الذي يقع في أحد أطراف المدينة لكن حصل ما لم يفكر به أحد. اتصل بوالده وقال له سوف أبقى مع أخي وأعود غداً، لكن حين عاد كان قد بايعهم هو الآخر.. عاد بزيهم وبسلاح يعود لهم وأفكارهم وكل قيمهم فرحاً بما وهبوه له من مال وأثاث من أحد الدور التي استولى عليها التنظيم. هنا الأب وقف بلا حول

ولا قوة حين أراد أن يقدم النصح هددوه أنهم سوف يسلموه إلى اولي الأمر واتهامه بأنه مرتد كافر.

كنت أشاهد الابن الأصغر خالد يأتي يوم توزيع الراتب له من قبل التنظيم يقوم بشراء ما لذ وطاب وكل ما كان محروماً منه بسبب الفقر والجوع وبالطبع هذا بسبب كل من يتولى أمور البلاد وأخذ بها إلى الهاوية مع كل ما في البلد من خيرات.

حين تزوج خالد حاولت زوجته أن تقنعه بأن يترك التنظيم وحين قرر هو وصديق له أن يتركوا التنظيم تفاجأ في اليوم التالي أن صديقه وكل عائلته حتى الأطفال قد تم ذبحهم وبعدها عرف أنه قد تحدث بموضوع ترك التنظيم أمام أحد الجند لذلك تم ذبحهم بلا تردد.. هذا ما جعل خالد يتراجع عن قراره خوفاً منهم وبقي مع التنظيم إلى أن ذهب إلى إحدى الغزوات ولم يعد وقالوا أنه قتل في هجوم صاروخي على عرباتهم وحتى إن أهله لم يروا جثة خالد.

حين حذرتني والدتي وطلبت مني الاختفاء وعدم الذهاب إلى منزل أبي أو وظيفتي أصبحت على يقين تام بوجود العيون التي تراقبني وتحاول الإيقاع بي فكرت وقررت أن أعمل بنصيحتها لكن يجب أن أبلغ أهلي أنني لن أتصل بهم مجدداً بعد الآن وذلك بسبب انعدام التغطية للاتصالات في

منطقة سكني الجديد وأيضاً لن أستطيع الذهاب إلى بيت صديقتي لأنه أمام المدرسة وسوف يكشف أمري لذلك طلبت من زوجي أن يأخذني إلى أحد الأحياء في وسط المدينة تقريباً وكانت تغطية الهاتف فيه قوية عند مفترق الطريق وقفت سيارتنا هناك وقام مصطفى بفتح غطاء السيارة الأمامي بحجة أن هناك عطل في السيارة بينما اتصل بأهلي سريعاً وبالفعل اتصلت بوالدي وأثناء حديثي إذا بشخص يأتي من بعيد ويقترب من السيارة حاولت أن أخفي الهاتف لحين أن يرحل من دون أن أقطع الاتصال وقف وسأل زوجي إذا ما كان يحتاج إلى مساعدة وأخبره أن هناك عطل والآن يصلحه وشكره ورحل ذاك الشخص وما أن ابتعد قليلاً وقف ينظر إلينا لأقل من دقيقة وأخرج جهازاً من جيبه وإذا بسيارة تأتي مسرعة في داخلها عناصر التنظيم قفلت الهاتف سريعاً وركب زوجي السيارة وعرفت أن أمرنا قد كشف حاول عناصر التنظيم إيقافنا لكن زوجي أسرع ونادوه بصوت مرتفع وقالوا له ماذا هناك هل تحتاج إلى مساعدة شكرهم وقال لهم: لا عطل بسيط والآن نحن بخير والسيارة جيدة. كان قلبي يدق بسرعة.. قاد زوجي السيارة بسرعة كبيرة وخرج من الحي كانت لحظات فاصلة بين الحياة والموت نجونا منها بأعجوبة.

مرت أيام طويلة دون أن أتصل بأهلي أو حتى أعرف أخبارهم وأي شيء عنهم. كانت جارتنا الكبيرة أم سعد تحاول الاتصال بابنتها التي تسكن

خارج المدينة فقد وجد الناس مكان في أعلى التل في أحد الأحياء يؤمن الاتصال بوضوح وعرضت علي أن أرافقها أنا وزوجي كي أتصل بأهلي من هناك فرحت كثيرًا وذهبنا معهم وما إن وصلنا إلى أعلى التل كان هناك العشرات من الناس يحاولون الاتصال بمن هم خارج المدينة الكل منشغل اتصل زوجي بأهلي وبينما كنا نتحدث فإذا بسيارة تابعة للتنظيم تسمى بسيارة الحسبة تقف عند أسفل التل ونزل منها مسلحون كثر هموا بالصعود وما أن وصلوا حتى قاموا بجمع الناس في مكان واحد وشكلوا حلقة حولهم وهم يحملون أسلحتهم ويوجهونها نحونا وجمعوا الهواتف وتفتيشها في تلكم الأثناء ركض أحد الشباب وقاموا باللحاق به اتضح أنه كان يتواصل مع القوات الأمنية خارج المدينة، وهذا ما كشف لنا أنهم يقومون بعملية تنصت كبيرة كما كانوا يقولون أو تجسس عن طريق المندسين بين الناس بقينا لساعات طويلة محتجزين ومنعونا من النزول واشتد البرد وكان زوجي مريضاً جداً.. كنا نتوسل لهم أن نعود وأخيراً سمحوا لنا بالنزول بعد أن قاموا بتفتيش الهواتف كلها وتأكدوا من عدم صلتنا بأي شخص من القوات الأمنية.

في أحد الأيام بينما كان الكل نائماً سمعت صوت صراخ وضحكات لم يعرف سببها أو ما هي أو ماذا هناك حين نهضت أسرعت إلى إحدى الشبابيك ورفعت الستار لم أكن وحدي من ينظر كان كل من في الحي يحاول أن

يعرف ما الذي يجري فإذا بفتيات كثر كان عددهم ثلاثة عشر تقريباً من الأيزيديات السبايا كما كان يسمونهن كانت الفتيات يضحكن ويبكين تحت المطر في المنزل المقابل لمنزلي أو طابقي وكان عناصر التنظيم قد رحلوا من المنزل إلى إحدى الغزوات ويبدو انهم قد نسوا أقفال الباب الذي يؤدي إلى الحديقة خارج المنزل كان منظرهم محزناً ومفرحاً في ذات الوقت كانت الفرحة ممزوجة مع أمل بعيد يبدو لنا ليس بعيداً فقط بل مستحيلاً في الخلاص أو أن يكون الغد القادم أفضل وأجمل. لم تدم طويلاً تلك الضحكات فقد تم سماع أصواتهنَّ في كل الحي وأن المنزل المجاور لهم والذي يليه وأكثر من منزل في الحي كان يسكنه المهاجرون من عناصر التنظيم فقاموا بالدخول إلى المنزل وتكبيل الفتيات واقتادوهن إلى خارج الحي ولم نرهن أبداً بعد ذلك.

بعدها بأيام كنت أعد وجبة الفطور لزوجي قبل ذهابي إلى العمل كان هناك أصوات حديد وخشب يرمى من مكان عالٍ ويرتطم بالأرض محدثاً جلبة مزعجة وضجيجاً كبيراً فتحت نافذة المطبخ كان أحد المنازل الذي يعود لعائلة أبو جورج المسيحية قد فتح بابه على مصراعيه وهناك نساء يقفن في الطابق الثاني ورجال في المنزل ويرمين بالملابس والأثاث غير المرغوب فيه إلى وسط الحديقة رغم أن الأشياء التي كانت ترمى ثمينة إلا أنهم لم يهتموا أبداً.

امتلأت الحديقة بأشياء لم يقدر أحد على تمييزها بين أثاث وملابس ومقتنيات مختلفة كان كل من يسكن في الحي ينظر إلى ما يجري وسمعت من جارتي أن أصحاب المنزل الأصلين من الديانة المسيحية طيبون جداً وودودون والكل يحبهم دون استثناء وكان الكل حزين أمام منظر الاستيلاء الذي يحصل على المنزل بغير حق لكن ليس باليد حيلة. أيام معدودة جلس الساكنون الجدد بمنزل أبي جورج وفي إحدى الليالي الباردة صرخت امرأة هزت كل من في الحي كانت إحدى تلك النساء التي ترمي الأغراض من منزل أبي جورج رأيتها تصرخ وتضرب على رأسها فقد وصل خبر قتل ابنها الوحيد أثناء إحدى معارك وغزوات التنظيم ومنذ تلك الليلة لم نرها مطلقاً يبدو أنها قد تركت المنزل بلا عودة كان المنزل نذير شؤم عليها.

في بداية الأمر وحين اخترنا هذا الحي والمنزل لنسكن فيه اخترناه لأنه بعيد عن الأنظار أولاً ولأنه آمن، ولكن المفاجأة الكبرى كانت حين اكتشفت بعد أيام عدة أن المنازل الأربعة التي أمامنا يسكنها عناصر التنظيم المهاجرون وهم يذهبون بين الحين والآخر للغزو ويعودون بعد فترة وأيضاً أنّ المنطقة كلها تسمى منطقة أو حيّ الأمراء والمهاجرين.

بعد فترة وجيزة وحين قام التنظيم بنصب منظومة دفاع صاروخي لاستهداف الطائرات المسيرة التي كانت ترسلها قوات التحالف لاستكشاف ومعرفة ما يجري ومراقبة تحركات التنظيم وكان موقعها تحت نفق الجامعة

الذي لا يفصلنا عنه سوى شارعين فقط وكان صوت تلك الآلة الحربية مفزع يرج جدران المنزل حين تبدأ بالضرب من الساعة السادسة صباحاً وحي الساعة الثامنة. في أحد تلك الأيام ذهبت ابنتي ذات الست سنوات إلى الحمام لوحدها ولم توقظني مثل كل مرة وبدأت المدفعية بالضرب مما أدى إلى إثارة خوفها وصرخت ونهضت على صوت صراخها وبكائها وبعد ذلك أصيبت بالمرض والحمى لمدة عشرة أيام. بعد ما عرفناه وما رأيناه في الحي قررت أن يكون خروجي إلى الشارع قليلاً جداً لأن الوضع بات غير مطمئن خاصة أني قد تركت الوظيفة.

كانت الرواتب قد تم قطعها نهائياً وما نملكه من مالٍ غير كافٍ لتسديد بقية إيجار المنزل الذي كنا نسكن فيه لذلك قررنا العودة إلى البيت القديم الذي يسكن فيه أهل زوجي ورغم عدم موافقتهم إلا أننا قد أخذنا قرارنا وانتهى الأمر.

كنت وحيدة ليس لدي من يزورني أو حتى يسأل عني رغم أن لي ثلاثة من إخوة أبي يسكنون في المدينة ولم يرحلوا لأي مكان. كانت الأيام تنقضي وتمر بألم شديد كنت أزور فقط أحد إخوة والدي لأنه كان قريباً مني. مع ذلك لم أهتمم لتصرفاتهم وكنت أزور إخوة أبي بين الحين والآخر. في أحد الأيام كنت أريد رؤية عمي وهو عسكري سابق متقاعد كان صعب المراس جدليّ. وصلت إلى منزله قالوا له هناك ضيفة تنتظرك في الباب قال لا

تدخلوا أحداً لا أريد رؤية أحد مهما كان دخلت إليه كان يقف في وسط المنزل أدار ظهره معبراً عن عدم رغبته باستقبال أي ضيف ولكنهم أخبروه أنها مريم ابنة أخيك التفت بسرعة وقال ابنة أخي دعوها تدخل تعالي إليّ رغم أني غاضب من والدك إلا أني اشتقت إليه جداً وأنت منه وفيك أثر من عطره لم أحتمل واحتضنته بقوة وقبلت يديه وجلست بقربه، تأمل كثيراً وجهي وقال لي: مريم أنتِ تشبهين أمك كثيراً، أخبريني عن أحوالك وكيف تعيشين؟ أجبته الحمد لله أنا بخير كنت قريبة من هنا اشتريت فرناً كهربائياً كي أصنع الخبز وودت أن أزورك قال لي عمي ماذا تقولين أنتِ تصنعين الخبز؟ صرخ على ابنتيه وزوجته وطلب منهم أن يعطوني الخبز وأن يصنعوا لي الخبز وهو من سيجلبه لي قلت يا عمي ليديم الله الخير على منزلك أنا فعلاً أستمتع في صناعة الخبز ليس إلا وكنت أخبز قبل ذلك لأن الأموال لم تعد تكفي لشراء الخبز لذلك كنت أصنعه في المنزل أفضل وأوفر. حين رفضت أعطاني مبلغاً من المال لكني رفضت وأصر عمي ولم آخذها منه لأنه مسؤول عن عائلة كبيرة ما يجعله دائماً بحاجة إلى مزيد من المال لأن الراتب التقاعدي يتأخر دوماً بسبب الظروف. سألت عن عمي الأصغر الذي اعتقل ولا زال الخبر عنه مبهماً لا أحد يعلم ماذا حصل معه قال لي لا زلت أبحث عنه. دامت زيارتي لأكثر من ساعة بعدها نهضت وقبلت يد عمي وطلب مني تكرار الزيارة وقال لي هذا بيتك وأنا والدك هل

فهمتِ؟ لا تقولي أنّ والدي ليس هنا أنا هنا مكانه وأكثر فرحت وحزنت في ذات الوقت فتواجدهم حولي يبث في داخلي الأمان.

كانت روايات عناصر التنظيم مختلفة بحسب اختلاف الدول التي أتوا منها وأيضاً السبب الذي دفعهم كي يكونوا ضمن هذا التنظيم وبكل فخر ودون تردد منهم. الانضمام كثير؛ لذلك كان الكل لدية الفضول لمعرفة كل شيء عن كل العناصر حتى من هم خارج المدينة كان الفضول يزداد لديهم لمعرفة من هم هؤلاء وما هي حقيقة وجودهم وكل شيء عنهم. كان لنا قريب لدية صالون حلاقة رجالي كان يرتاده الكثير من عناصر التنظيم وطبعاً هو غير قادر على رفض تقديم الخدمة لهم فذلك يعتبر رفض واضح لهم.

وإثناء جلوسهم وانتظار دورهم كانوا يروون الكثير مما يحدث معهم وبالطبع الناس كلهم لديهم فضول في معرفة كل تفاصيل حياتهم سواء أحبوهم أم كانوا يكرهونهم. فقد تحدث أحدهم عما يسمى بسجل الشهادة ويقصد به هو تسجيل اسم العنصر الذي يرغب بالاستشهاد من خلال عملية استشهادية ضد الأعداء بواسطة حزام ناسف أو سيارة مفخخة وهذا يتطلب الانتظار طويلاً فكان تسلسل أحدهم قد وصل إلى الرقم أربعة آلاف وهو فرح جداً وأنّ هذا الرقم من حظه لأن القائمة طويلة جدًا والعدد يفوق التصور. وآخر سوري يبلغ الرابعة عشرة كان يسمى انغماسي قال أن عمله هو الانغماس داخل جيش العدو وقتلهم بسرعة كبيرة

والعودة دون أن يلمسه أحد واستطاع المشاركة في غزوات كثيرة والنجاة بسهولة.

وشيخ من بغداد تحدث عمّا يملكه من أموال ومن ممتلكات وثروات لا تحصى وقد وهب كل ما يملكه إلى التنظيم بسبب ما قد شاهده داخل السجون وكيف أنه لم يحتمل عملية الاغتصاب بلا رحمة وليس فقط الرجال بل كانوا يجلبون نساء السجناء ويقومون باغتصابهم أمام أعينهم كي يجبروهم على الاعتراف بذنب لم يقترفوه وهذا ما أجج الحقد والكراهية والتطرف في نفسه حسب قوله وروايته، لذلك بايع وانضم للتنظيم كي ينتقم من كل من ينتمي لصفوف القوات الأمنية. وتحدث أحدهم عن كيفية قيامة باستدراج الشباب وتطويعهم. وخاصة الفتيات من أوروبا. وآخر تكلم عن كرهه الشديد لأمريكا وإسرائيل وكل ما يفعلوه في القدس لذلك بايع لأجل القدس.

وهناك من سمع بكثرة الغنائم والامتيازات للعناصر من مال وأشياء كثيرة مثل تزويج الشاب الذي لا يقدر ومنحه منزلاً وأثاثاً متكاملاً ويتكفلون بكل لوازم العرس وتفاصيله.

تحدث ذات مرة عن شخصٍ من شمال العرق مبايع للتنظيم ذي شعر كثيف مجعد وكان معروفاً لدى أهالي الموصل بسبب شكل شعره الغريب قال

طلب مني أن أسرح له شعره وحين بدأت ووصلت حتى المنتصف استغرقت ساعتين وقلت لزميلي أكمل عني فوقف بقربه وأخذ خصلة من شعرة وقص القليل منها ظناً منه أن ذلك سوف يساعده إلا أنه نظر إليه بطريقة وفتح عينيه بوحشية وصرخ بوجهه وقال له إياك أن تفعلها وإلا ذبحتك ترك زميلي المقص والمحل كله وهرب.

كانت القصص كثيرة جداً خاصة لمن هم من خارج البلد كانت الأموال التي لديهم كثيرة بسبب الغنائم وكل ما يستولون عليه من منازل التي تركها أهلها بلا عودة والمصارف والمؤسسات كانت تغدق الأموال عليهم مثل المطر.

لكن للأسف قد تم غلق محلات الحلاقة الخاصة بالرجال والنساء أيضاً فقد أصدرت فتوى جديدة وهي إطلاق اللحية وترك الشعر دون حلاقة للأسف لم نعد نسمع من قصصهم المزيد.

أصبحت المدينة معزولة عن باقي المدن وأصبحنا كأننا نعيش في بلد وليس محافظة تابعة لبلد كان التبادل التجاري يمر عبر سوريا وبعض المنافذ بمساعدة بعض الأطراف وكان النفط تحت تصرف التنظيم وكثير من خيرات المدينة وكل هذا ينقل إلى مدينة الرقة السورية وكان كل شيء متوفراً في بداية الأمر وحتى بعض الأجهزة الإلكترونية والهواتف النقالة كانت

تصل أسرع مما تصل إلى أي مدينة أخرى تغيرت علامات الطرق والإشارات التي تدل على أي مكان أو قضاء أو محافظة فأصبحت كلمة ولاية بديلاً عن كلمة محافظة وأصبحت الموصل مدينة الخلافة وكان يستعمل كلمة الإخوة بدلاً من كلمة مواطن والشرطة الإسلامية بدلاً من كلمة شرطة والجند والمحتسب والآمرين بالمعروف والولاة والحكام الشرعيين والأمراء أما عن لقب أمير يناله من كان قد قتل سبعة من الكفار أو المرتدين والوالي لمن قتل أكثر من خمسة عشر من المرتدين والكفار أيضاً حسب تصنيفهم.

كان الجندي المنتمي للدولة أو التنظيم يتقاضى حوالي أربعمئة وخمسين ألف دينار مع قنينة غاز وبرميل نفط أبيض شهرياً كونه مميزاً لأنه يخدم التنظيم والإسلام. ومن أراد أن يتزوج يهدونه ألف وخمسمئة دولار مع تجهيز كامل للعرس ومنزل من منازل المرتدين أو الروافض التي أصبحت ملكاً للتنظيم. ومع إقامة في فندق (الوارثون) فندق (أوبروي) سابقاً لليلة أو ليلتين مجاناً وبعد ذلك بدأ الراتب يقل حتى انعدم ولم يعد يتقاضى أي أحد منهم أي شيء.

في الأول من إبريل من سنة **2015** كان زوجي قد اتخذ قرار العودة إلى منزل أهله مجدداً لأن الأمور بدأت بالتعقد فالعمل كان قد توقف تقريباً والراتب قد تم قطعه نهائياً لذلك كان قرار العودة هو أفضل الآن.

بمجرد أن طرح الموضوع أمام أهله كان الرفض كبيراً بحجة عدم وجود مكان كافٍ إلا أن مصطفى لم يهتم أبداً قام بنقل الأشياء المهمة فقط وبهدوء كي لا يعلم أحد من أهالي الحي بعودتنا لكثرة العناصر المندسة المتواجدة هناك. أما عن الأثاث الذي قمت بنقله من منزل أهلي اضطررت أن أعيده مستغلة ظلمة الليل كي لا يعلم أحد تحركي.

في أول ليلة في منزل والد مصطفى في ذات الغرفة التي كنت سابقاً أشغلها كنت أفكر في أني يجب أن أنهي عملي بسرعة، تعودت على العمل بسرعة والتحرك بسرعة لوحدي لم يقدم أحد يد العون أو المساعدة سوى زوجي مصطفى.

كان يساعدني في كل شيء وفي أي عمل أقوم به حتى إذا كنت لا أحتاج لم يتركني لوحدي أبداً. كنت أعمل على إعادة ترتيب أشيائي لأن المكان الذي سأسكنه مجدداً عبارة عن غرفة واحدة هي للنوم وللمعيشة وللطعام ليس لدينا غيرها ومطبخ صغير بقرب الغرفة. حين حل المساء طلبت من مصطفى أن يأخذني إلى منزل أهلي كي آخذ بعض الأشياء المهمة ركبنا السيارة واتجهنا نحو المنزل الذي يقع في منطقة بعيدة.. حين وصلت سيارتنا إلى مفرق أحد الطرق هناك كانت حالة من الفوضى في تقاطع وإشارة المرور ونيران من كل مكان ودخان غطى السماء رغم الظلام.

لم أسمع أنا وزوجي ما كان يحصل في الخارج بسبب غلقي لشبابيك السيارة وما أن توقفنا لنرى ما يجري.. فإذا بصورايخ تسقط على إحدى المنشآت الحكومية القريبة من الحي.. صواريخ بدأت تتوالى واحدة تلو الأخرى وبلا توقف قاد مصطفى السيارة بسرعة وبدأت أبكي وأصرخ: أهلي وأعمامي ماذا حصل لهم فالقصف قريب جداً من منازلهم.. حالة هستيريا أصابتني ولم أستطع أن أتمالك أعصابي وصلت إلى بيت والد زوجي واتصلت عبر الإنترنت بأهلي وطلبت منهم أن يتصلوا بأعمامي الأكبر أو الأصغر لكن دون جدوى فالاتصالات بعد أي هجوم تكون مستحيلة حتى في المناطق التي يوجد فيها تغطية اتصالات. دقت الساعة الحادية عشرة مساء ووصلت رسالة من رقم أمي يخبرونها أن جميع الأهل بخير ولم يصب أحد بأي شيء.. الحمد لله. في اليوم التالي الساعة الثانية ظهراً كنت أنا وزوجي وابنتي قد أنهينا تناول وجبة الغداء، وإذا برسالة تصل على هاتف زوجي على برنامج الفايبر أنها من أختي الصغرى جنة كتبت فيها أن عمي فاضل قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة وهو الآن في المستشفى قالت لي أختي جنة لا تخبري ليان فهي تجهز نفسها لأن اليوم مساءً حفلة خطوبتها. صدمت بشدة وكنت لا أصدق ما قالوه لي لأني قبل يومين فقط كانت عند عمي ولم يكن فيه شيء ويوم أمس كان زفاف ابنته الصغرى من ابن عمي الآخر حميد لا أعلم ماذا حصل بالضبط لكنها كانت صدمة كبيرة.

بعد دقائق رن الهاتف مجدداً وقال لي مصطفى ما هذا أن ليان كتبت لي رسالة تقول أن عمي قد مات كان الخبر مثل سرعة البرق حين ينزل على سطح من خشب ويحرقه بسرعة بكيت وقلت لمصطفى سأذهب في الحال أخبرني أن خروجي فيه خطر لكني لم أبالِ.. ارتديت ملابسي بسرعة وطلبت من أخ مصطفى الأصغر إيصالي إلى منزل عمي وطيلة الطريق كنت أدعو أن يكون الخبر غير صحيح وأنه بخير.

دخلت السيارة الحي وحينها تأكدت من الخبر رأيت باب المنزل الذي كنت واقفة عنده قبل يومين فقط وكيف استقبلني بكل لطف وحنان والآن أقف عند نفس الباب لكن كي أودع جثمانه إلى الأبد دون عودة. كان قد توفي بسبب جلطة دماغية أصابته لأسباب عديدة منها تهديد التنظيم الدائم له باعتقاله وقتله وأيضاً حين تم قصف المنشاة القريبة من منزله كان ابنه الأصغر عبد الله خارج المنزل وحين سقطت الصواريخ ركض خارج المنزل كي يبحث عنه ولم يجده وعاد للمنزل ويصرخ من ألم رأسه ولم يهدأ حتى عاد عبد الله. لكن في الصباح كان الألم قد اشتد وأُصيب بالجلطة وأدى ذلك إلى وفاته رحمه الله.

كانت الأيام التي قضيتها في مجلس عزاء عمي حزينة جداً فهو ليس أول من يموت من عائلتي أثناء احتلال المدينة هذا ثالث عم قد غادر الحياة كانت قسوة الموقف شديدة ففي مثل هذه الأيام صعب جداً أن تبقى العائلة دون

أب يرعاها ويمنع انجراف أولاده خلف تيار الخطر والموت وجوده ضروري لكن الموت لا يعرف معنى ذلك أبداً. مجلس العزاء كان عبارة عن حكايات وقصص حصلت مع الناس يرويها النسوة أما أن تكون لهن أو لأناس يعرفونهم أو جيرانهم. كان الناس يأكلون بطريقة غريبة. كانت الأموال قليلة والعمل أيضاً قليل والكثير منهم لا يشبع. انتهت أيام العزاء الثلاثة وعدت بحزن كبير لا يمكن تحمله أبداً وحاولت أن أتخطاه بكل طاقتي وأحمد الله دوماً وأدعوه أن يمنَّ عليّ بالصبر.

كان بيتي وسط المدينة تقريباً والكثير من أحكام التنظيم كانت غالباً تنفذ في وسط الشارع لذلك كان كل شيء يجري وكل ما يقومون بتنفيذه بحق الناس كان أمام مرأى ومسمع مني. كان سطح منزلي يطل على الشارع بالضبط حين كان يسمع صوت إطلاق نار كان الكل يعلم أن هناك حكم سوف ينفذ بأحد المذنبين حسب رأيهم.

من الأحكام التي كانت تنفذ أمام عامة الناس هي عقوبة السرقة بقطع اليد وينفذ في السوق أمام الكل ويمنع انصراف أي شخص مهما كان السبب صغيراً أو كبيراً. وعقوبة الزناة يتم التنفيذ في ساحة كرة القدم التي يلعب فيها الصغار والكبار يجمع الناس وتشكل حلقة كبيرة وتوضع المرأة المذنبة في الوسط وتجمع الحجارة ويتم رجمها أمام أهلها حتى الموت ولا يقدر أحد من الواقفين التدخل أبداً.

وعقوبة أخرى وهي التجسس ونقل أخبار التنظيم إلى خارج المدينة هنا يعتبر جرماً كبيراً لذلك يقومون بنحره أمام الناس وكانت بتعليقه على إحدى الجسور بعد أن يطلقوا علية الرصاص أو أنهم يقومون بربطه في سيارة (كيا) ويقومون بعرضه في كل الأحياء كي يجعلوا الناس تهابهم أكثر وأيضاً وضع مادة الـ (تي إن تي) المتفجرة في رؤوسهم وتفجيرها. وعقوبة أخرى لمن يمتنع عن الصلاة في وقتها فكان حين يرفع لأذان يجب أن يترك البائع والشاري كل ما في أيديهم ويتوجهون إلى المساجد والجوامع ويصلون الجماعة في مكان ما ومن يمتنع يجلد أمام الناس مع غرامة مالية.

ومن يقم بحلق اللحية أو عمل قصة شعر غير شرعية أو ما يسمى بالقزع يقومون بأخذ الشخص المخالف ويجبروه على أن يدلهم على الحلاق الذي قام بعمل هذه القصة أو التسريحة دون أن يتكلموا معه وأيضاً غرامه مالية تقع على الحلاق يقوم أحد العناصر بحلق شعر الحلاق كله. والنساء ممن يخالفن أصبح الأمر مختلفاً حيث أصبحت العقوبة بأخذ المرأة المخالفة إلى مقر الحسبة وهناك يتم محاسبتها من قبل نساء في الحسبة فرنسيات الجنسية لأنهن يتسمن بالقسوة والقوة في نفس الوقت.

في إحدى أسواق المدينة امرأة مسنة قامت برفع الحجاب أو الخمار من على وجهها بسبب ضيق في التنفس حصل لها قام أحد عناصر الحسبة بإجبارها على الجلوس في الشارع وجلدها أمام الناس هنا المرأة تلك لم تتحمل

أصيبت في الحال بأزمة قلبية أدت إلى وفاتها في الحال بسبب الإحراج والحزن الذي أصابها. وعقوبة الشاذين جنسياً هي رمي المذنب وهو مكبل اليدين من على أعلى بناية في باب الطوب في وسط الموصل.

كان أشد قسوة العقوبات تقع على الأسرى الذين يقعون بعد أي معركة بين التنظيم والقوات الأمنية كان منهم من يذبحون أمام العلن وآخرون يوضعون في السجون وثم يغرقونهم في الماء والكثير منهم يتم حرقهم أحياء وآخرون ليس هم فقط بل المعتقلون بتهمة الولاء للحكومة المرتدة كما كانوا يقولون.. تختلف طريقة التعذيب كأنه فن لا يجيده غيرهم. كان حال السجناء الذين يعتقلهم التنظيم لا يمكن أن يكون شبه له في معتقل سجن..

حدثنا سجين كان مع عمي في ذات الزنزانة وقال تمارس أساليب الاستجواب والمتهم يدان حسب الشهود أو من سرب معلومة لهم عنه وبعد هذا يقومون بإصدار الحكم بالموت ولكل مذنب طريقة خاصة به بعد عرضة على القاضي الشرعي وبعد الحكم لا يقومون بتنفيذه مباشرة بل يأخذونه في كل صباح ويقولون حان موعد إعدامك وإنزال القصاص بك يكون في حالة هستريا ورعب ولكنهم يتعمدون في أخذه وجعله يشاهد أحكام صدرت بمتهمين غيره ويعذبونه قليلاً، ثم يعيدونه للزنزانة قائلين

اليوم لم يكن موعدك وهكذا يتعمدون اللعب بأعصاب المتهم وجعله ينهار نفسياً ومن يواليهم ويقتنعون به موالياً لهم يتركونه للعمل لحسابهم.

وعقوبة الهاربين أو من يحاول الهرب من المدينة هي الذبح أو الإعدام رمياً بالرصاص لكل أفراد العائلة واحداً تلو الآخر. وعقوبة من اشترى عقاراً من مسيحي أو يزيدي بمصادرة العقار والجلد ودفع غرامة مالية. وعقوبة من يتزوج من شيعية هي الذبح لكليهما فقصة زينب وعمر لا زالت عالقة في أذهان الناس حين قامت زينب بتوزيع الطعام على المنازل بثواب استشهاد الإمام موسى الكاظم ورأتها إحدى المواليات للتنظيم وأبلغت عنها وقالت أنّها شيعية وألقوا القبض عليها وعلى زوجها واتضح أنه سني وتزوجا عن حب ولديهم خمسة أطفال فقاموا بقتلهما معاً.

تزوجت أختي الصغرى جنة بعد مرور أكثر من ستة أشهر على موت عمي كان شعوري لا يوصف حزن كبير على عدم تواجدي وفرحتي بها أنها كبرت وأصبحت عروساً فائقة الجمال.

مع نهاية الفصل الدراسي كان الكثير من الناس قد عمدوا إلى جعل أولادهم يتركون المدارس بسبب سوء الإدارة والتعليم وأيضاً بسبب معرفتهم أن المنهج قد يتغير وقد قام التنظيم بإجبار المعلمين والمدرسين على الدوام رغم انقطاع الراتب.

وفي بداية السنة الدراسية لعام كان التعليم تقريباً سوف يصبح لا وجود له لكن التنظيم أصدر قرارات صارمة جداً ضد من يمتنع عن الدوام لذلك كنت في حيرة من أمري لأن التنظيم قام بعمل جرد واستبيان لكل المناطق لمعرفة المتخلفين عن الدوام.

أردتُ العودة إلى الدوام وقلت إذا ما سألوني أين كنت سأقول لهم أني كنت خارج المدينة أو أني كنت مريضة أو أني سافرت وعدت لم أعلم ما الذي سوف أفعله استشرت أهلي وزوجي كنت في دوامة كبيرة لا أعلم ما الذي سوف يحصل إذا ما عدت لأني كنت مهددة من قبل أشخاص مقربين بأنهم سوف يبلغون عني لأنهم موالين للتنظيم إلا أني أخيراً اتخذت قراري ورفضت أن التحق بالوظيفة وتركت الأمر لله.

في أحد الأيام وصلني خبر موت ابنة عمي ذات العشرين عاماً في حادث سيارة كان الحزن قد وجد في داخلي ملاذاً آمنا له دون البشر.

كانت الأيام تمر علي بدون أن أتواصل مع أحد وكانت الخلافات العائلية المتعارف عليها باتت منعدمة بيني وبين زوجي وانتهت أصلاً لأن حياتنا باتت عبارة عن أنا وهو وابنتي فقط مع بعض دون تدخل أي طرف آخر.

أصبحت المدينة تفقد رونقها وأصبح العمل قليلاً جداً بسبب قلة الاستيراد إلى أن وصلنا لانعدام الاستيراد لكل المواد الغذائية والإنشائية والطبية وكل

شيء بدون تحديد والاعتماد الكلي أصبح على المخزون الغذائي الموجود داخل المدينة مما أدى إلى استغناء الكثير من أصحاب المحلات والمطاعم عن الأيدي العاملة وأيضاً توقف البناء وإقفال الكثير من الصالات الخاصة بالشباب ممن كانوا يتناولون ما يسمى بالنرجيلة لأن التنظيم منعها وأقفل الصالات التي تقدمها والمحلات التي تبيعها وتبيع مستلزماتها.

وأغلب محلات الملابس أُقفلت بسبب الاعتماد على الزي الرسمي الذي يمنع ارتداء غيره وساحات الملاعب وحتى العيادات الطبية أغلبها أغلقت بسبب هروب الكثير منهم خارج المدينة ومنع زيارة الرجال للطبيبات النساء والعكس أيضاً منع دخول النساء إلى عيادات الأطباء من الرجال والصيدليات أقفلت أغلبها بسبب شحة الدواء ومعارض السيارات اقتصرت على عناصر التنظيم ووصل سعر السيارة القديمة إلى ألف دولار فقط والسيارات الحديثة وصل سعرها إلى خمسة آلاف دولار فقام زجي ببيع السيارة الخاصة به لأننا سمعنا أنّ القوات الأمنية سوف تدخل المدينة وسوف يكون هناك حرب شوارع وإذا ما أردنا الهرب سوف نترك خلفنا كل شيء لذلك قام ببيعها لتكون أموالها مصدر للعيش بدون ذل أو عوز كنت أبتاع كل ما يلزم من مواد غذائية وكل شيء ضروري.

كانت أمي وأبي في كل شهر يرسلون لي حوالة مالية لمساعدتي وكان في بداية الأمر شيء اعتيادي جداً ولكن مع تضيق الخناق على المدينة منعت

الحوالات من أي مكان في العالم إلى مدينة الموصل لأن التنظيم كان يحصل على أغلب أموال الدعم من خارج العراق عن طريق الحوالات المالية من بعض المكاتب لذلك كان والدي يرسل زوجي إلى أحد الأصدقاء ممن يتعاملون بالتحويل سراً وإذا ما تم كشفهم فعقوبتهم الموت.

في كل تصريح للدولة الحكومة بقرب اقتحام المدينة كانت المواد الغذائية ترتفع أسعارها بشدة وحتى أنّ قنينة الغاز وصل سعرها إلى أكثر من مئة ألف دينار هذا إذا ما وجد أو توفر وكان هناك بديل آخر للطبخ وهو ما يسمى بلغته أهل المدينة (**الجولة**) وهي تشبه المدفئة الصغيرة تعمل بواسطة النفط الأبيض وكانت حوادثها كثيرة جداً فقد احترق ومات بها أشخاص كثر لأنها تنفجر بسهولة ولها دخان أسود يؤدي إلى الإصابة بالحساسية والربو المزمن.

كانت تعمل على تشغيلها في الحالات التي يتطلب الطعام فيها ناراً لفترة طويلة لأجل الاستواء أو لصنع الخبز فوقها عن طريق وضع قطعه من الحديد تسمى بالصاج فوقها لأن الأفران كانت قليلة جداً وأيضاً الكهرباء قد قلت جداً وهذا ما منع استخدام الفرن الكهربائي لصنع الخبز. كانت الحياة صعبة جداً وباتت تسير ببطء أكثر.

كنت أذهب لبيت عمي كي أقوم بإجراء اتصال من هناك لأن التغطية لديهم جيدة وبيته بعيد عن أنظار كل من يعرفني كنت أذهب بين الحين والآخر كي أعرف أخبار أهلي. في أحد الأيام كان البيت الذي يقع أمام بيت عمي يسكنه عناصر من الحسبة ولم أكن أعلم كان الأطفال هناك عند الباب وفتيات يعرفنني جيداً لأنهن صديقات ابنتي ونادوني لأنهم رأوا وجهي لأني كنت قد رفعت الخمار ولم أنتبه لتواجدهم ولكني خبأت وجهي والتزمت الصمت كأني لا أعرفهم وهنا كان يجب عليّ أن أنتبه لأني لم أكن أعرف أني سوف أقابل أحداً ما يعرفني وأني مازالت في المدينة لذلك تركت المجيء نهائياً هنا واكتفيت بالتواصل بالانترنت.

وبعد قرار التنظيم بقطع الإنترنت نهائياً وتم تبليغ المكاتب الخاصة بالإنترنت بإلغاء العمل وتفكيك المنظومة الخاصة بالإنترنت وذلك لان التنظيم اكتشف عملية التهريب التي كانت تحصل لأبناء المدينة وبمساعدة بعض العناصر والأمراء من أجل الكسب المادي وكل هذا بسبب أن التنظيم بات التمويل المالي لديه معدم بعد أن عملت الحكومة المركزية على قطع التواصل بين شركات التحويل المصرفي بن المدينة وكل من يسكن داخلها أو خارجها وأموال أهالي المدينة قد انتهت أيضاً ولم يبقَ لديهم المزيد كي يأخذوه بطرقهم الملتوية لذلك قام العناصر من التنظيم بابتكار طرق لتهريب الناس ومناصفة المهربين بالمبلغ الذي وصل تقريباً إلى سبعين

ورقة كلفة للشخص الواحد الذي يرغب بالهرب بعد أن ابتدأت من الثلاثة أوراق أي ثلاث مئة دولار. وهنا كان لي محاولة أخرى لأجل الهرب من المدينة وهي عن طريق مهرب أرسله لنا أحد أصدقاء والدي وكان اللقاء بعد الاتفاق ليلاً في أحد أحياء الجانب الأيمن وقبل الذهاب الخروج من المنزل اتصلت بأهلي عن طريق الإنترنت وأخبرتهم أنني قادمة.. ادعوا لنا الله أن ننجح وكنت أسمع صوت جدي ودعاءه لنا وصوت جدتي وهي تقول أسأل الله أن يفتح لك طريقاً مستقيماً لا خطر فيه.

ذهبنا أنا وزوجي ووالدته وابنتي بعد أن جهزنا أنفسنا للسفر واتجهنا إلى تلك المنطقة وكان الدعاء كل ما أملكه وصلنا هناك وقال المهرب هيا معي لندخل إلى منزل قريب من هنا وستأتي سيارة حمل كبيرة لتنقلنا إلى نقطة معينة ومن هناك سنركب في سيارات خصوصية كل عائلة لوحدها فرحت كثيراً لأننا أخيراً سنترك المدينة وبعد دقائق من الحديث بين زوجي والمهرب عاد زوجي وقال لي سامحيني إذا ما خذلتك لكني لا أود الهرب فالخطر كبير لم أتفوه بكلمة واحدة وأمسكت يد ابنتي وسرت وأنا لا أنظر إليه ولا أرى أمامي سوى خطوات بائسة وخيبة أمل جديدة. بعد ساعات اتصلت بي والدتي وسألتني أين أصبحت أخبرتها أنني في البيت عدنا ولم نهرب.

قرر التنظيم قطع الإنترنت كي يسيطروا على عناصرهم الذين باتوا لا يحتملون العمل بلا مال. في آخر يوم من المهلة أخبر صاحب منظومة

الإنترنت زوجي أنّ في الساعة الثالثة صباحاً سوف يتم القطع نهائي لذلك فتح لنا الخط وقال لا زال هناك ساعتين كنت حزينة جداً لأني لن أتمكن مجدداً من الحديث مع أهلي كان هذا الأمل الوحيد وانتهى كل شيء أخذت الهاتف وصعدت للسطح كي أتحدث مع أهلي تكلمت معهم وأنا أبكي ولم أدعهم يعرفون وقلت اطمئنوا لن يحدث شيء لأن هذا آخر اتصال معكم كان سواد الليل يوازي السواد الذي حفره الحزن في قلبي. تحدثت مع الكل أمي ثم أبي ثم أخواتي الثلاثة وإخوتي وجدي وجدتي وطلبت منهم أن يكونوا بخير وأن يدعوا لنا بالنجاة لأراهم. كنت في تلك الحظة أنظر إلى الساعة وأنا فاقدة للأمل تماماً لأن الساعة باتت الثانية والأربعين دقيقة بعد منتصف الليل لم يبقَ سوى دقائق وأنا أتحدث فإذا بجملة ظهرت في شاشة الهاتف تقول تم قطع اتصال الإنترنت. بكيت بشدة وبقوة وبقيت متأملة في الهاتف رفعت رأسي لأنظر إلى البرج الخاص بالمنظومة فإذا به ينطفئ وبدأ صاحب البرج بحل القطع.. رفعت رأسي للسماء وطلبت الصبر فقط الصبر لا غير فقد تمكن الحزن من كل شيء في داخلي. نزلت من السطح وأنا أستعيد صدى صوت أمي وأبي وإخوتي التي اختزلتها في ذاكرتي كانت ثقيلة جداً خطوات نزولي كم هو مدمر ذاك الذي يسمى الوداع. كنت غير محظوظة أبداً فهناك أماكن فيها تغطية لشبكة الاتصالات المحمولة إلا منطقة سكني وقبل أن يقطع الإنترنت وطلبت من أكثر من شخص من أقرباء زوجي أن أتصل بأهلي من عندهم لكنهم رفضوا

أو أنكروا أن لديهم تغطية. كانت ليلة طويلة عليّ أخذت الذكريات تمر أمامي وأصوات أهلي وصورهم لم أرَهم منذ سنتين والآن لن أسمع صوتهم.

لا أحد يمكنه وصف ذاك الألم والحزن مهما كتبت من كلمات تبقى المشاعر داخل القلب أقسى بكثير لا يعلم بها سوى من يحملها بين أضلعه. بقيت أتقلب وأدعو الله أن يساعدني مع أول أذان للفجر توضأت وصليت ولازلتُ أبكي جلست ولم أقدر على النوم أبداً كنت أعلم كم أن من حولها أشخاص كثر قد فرحوا بما أصابها لكنها لازالت تنتظر الفرج. في الساعة السابعة والربع صباحاً كنت أملك هاتفاً قديماً وضعت فيه شريحة اتصال كنت دائماً أجرب وأبحث عن شبكة الهواتف المحمولة فهناك مناطق فيها إشارة وقوية أيضاً تأمين الاتصال بسهولة إلا هذا الحي الذي أسكن فيه لا أمل لوجود الاتصال.

دفعني حزني أن أذهب إلى السطح مجدداً حاولت كثيراً وسرت ووقفت في كل زاويا سطح المنزل ظناً مني أن التغطية للهواتف النقالة سوف تأتي هنا في بيتي رغم أني قد حاولت مسبقاً بلا فائدة لكن ماذا أفعل كنت أحاول مواساة نفسي أو التشبث بأي شيء مهما كان وبأي طريقة مهما كانت يائسة أو بدون جدوى بكيت مجدداً وتوجهت نحو الدرج كي أنزل لأني تعبت بالفعل تمكن حزني من كل جسدي وكل مشاعري كنت أضع قدمي على الدرجة الأولى وأنا أنظر إلى الهاتف الذي هو حلقة الوصل الأخيرة

التي انتهت وإذا بي أرى العلامة التي تدل على وجود الشبكة لم أصدق عيني أبداً عدت إلى السطح لكن الشبكة اختفت ثم عدت إلى نفس المكان حيث بالفعل في هذا المكان بالضبط كانت شبكة الاتصالات مؤمنة وقوية بدون تردد اتصلت برقم والدي كي أرى هل هناك اتصال وإذا بصوت والدي يرد علي وقفت لثوانٍ متفاجئة مما حصل معي ومن كرم الله عليه وفضله لم يجعلني أحزن أو أتعذب كثيرًا كانت الفرحة كبيرة لدرجة أني لم أحتمل ما جرى وأخبرت والدي أني وجدت المكان الذي أستطيع عنده أن أتصل بهم بأي وقت. حمدت الله كثيراً قفلت الهاتف وعدت واستلقيت ونمت في مكاني مطمئنة لم يعلم أحد من أهل البيت أن الله من عليه ولم يحرمني من سماع صوت أمي وأبي.

كان وجود الهاتف في أي منزل يعتبر جريمة كبره عقوبتها الذبح وكنا قد قمنا بإخفاء هواتفنا التي فيها كاميرات وأيضاً أجهزة الحاسوب فقد كانوا يقومون باسترجاع كل ما كان داخلها لمعرفة تحركات الأشخاص كنت حريصة على تفكيك الهاتف الخلوي الصغير الذي كان يعتبر قديم جداً وكنت أخبئ الشريحة في كل مرة في مكان معين لأنهم كانوا على دراية تامة بكل مكان ممكن أي يخطر على بال أي بشر لإخفاء أي شيء مهما كان صغير الحجم. وكان دخولهم إلى المنازل يكون فجأة لإيجاد الهواتف ومعرفة

الجواسيس الذين يسربون معلومات عن الوضع للحكومة. وعقوبة من يملك هاتف هي القتل والإعدام وتعليق الجثة في الشارع.

كان قطع الإنترنت مضراً جداً أيضاً بمصالح التنظيم فقد حجبت أعمالهم وغزواتهم عن الناس لذلك قام التنظيم بتشكيل نقاط في الشارع في كل حي وكل شارع وسوق والنقطة تلك عبارة عن مقاعد للجلوس أمام شاشة تلفاز كبيرة بقرب كرفان يجلس فيه عناصر من التنظيم يقومون بتشغيل الأفلام الخاصة بهم وبغزواتهم وبكل عمليات الذبح للقوات الأمنية والجيش بكل صنوفه وعمليات القتل التي يقومون بها تجاه أبناء المدينة وكل المدن التي يقومون بالسيطرة عليها وكانت بين العمليات التي عرضت على الشاشة مراراً وتكراراً هي عملية نحر عدد من وجهاء وقادة وضباط كبار من الموصل لهم مكانه خاصة.

الفصل العاشر

توحد بلد

من منارتي نادى المنادي وكبر العدو صال وجال في الأرض وتجبر.. حزن وجوع وعطش ونحيب نساء وأنين نحر الرجال إلى أهل العزة تنقل إليكم الخبر.. انحنت الحدباء حزناً على ما جرى ودمدمت السماء لصدى النداء وثارت وانتفضت ورعدت وهناك كان بساط علاء الدين طائراً يعلو بين الريح وينخفض بين لهو وبهجة وبين بغداد والكوفة ينتقل لازال على العهد القديم للتاريخ والزمان ولتغيير الأحوال لم يأبه أو حتى ينتبه يصغي لما تحمله الريح فلا يستمع توقف حائراً لوهلة مال صوت الذي إليه يصل هل بغداد وأرض العراق في أوج زهوها وعزها أم هناك جيوش تقترب ماذا جرى فاقترب وأصغى أنها قهقهات ضحكات لا بكاء ودمعات.. عزف الطبول ورقص الإناث لا بل إنها أيدي الشر تنحر البشر وتئد الإناث فتتراقص الأمهات ألماً وبكاءً.

هدير المياه لا أنها الدماء حين تسير على التراب حباته ترتعب.. تكبيرات عيد واحتفالات لا أنها تكبيرات ليجتمع الناس لرجم إحداهن بلا شهود أو نحر مظلوم أو قطع يد سارق من الجوع امتدت وسرقت أو لجلد رجل تأخر ولم يصلِ في المسجد أهكذا الدين أمر؟

أصغى واقترب أصوات حجارة تنزل من أعلى جبل كلا إنها رؤوس الرجال تتدحرج أسفل الوادي والجسد قائم، ثم سقط وبالرأس لحق أصوات براكين تنفجر لا، لا.. يا للهول إنها مساكن للبشر ودور العبادة تنفجر وآثار

تحكي لنا تاريخ البلاد أيضاً تنفجر.. هلال ونجمة وبسم الله هنا وصليب وجرس هناك سقطت حرف النون وحرف الميم وحرف الراء على جدرانها خطت.. تغير لون البساط وخيوطه الناعمة قست وبكت وحزنت ولهول ما يجري قررت أن تحمل صوت نداء المنارة الحدباء وتسمع النداء لكل البشر مثل ريح عاصفة هبت أسرعت وحطمت ما في طريقها وطرقت دار السلام وبواباتها والزقورة علت وعلى الجنائن المعلقة وقفت والرسالة أوصلت وأكملت الطريق نحو سور دار السلام وبواباتها للنداء فتحت والنداء لبت وعلى جبال غطاها الثلج وصلت وحملت صدى النداء فذاب الثلج وسال أنهاراً ملتهبة من شدة الظلم الذي وقع.. وصل مكان ما وحزن فإذا بجرس دق في كنيسة العذراء وما بين رنينه وصداه اختلط الشوق والحزن لأجراس بعيدة كان يسمع رنينها فيما مضى وأخبرهم: أتلو الصلاة وأدعو أنّ الناس هناك الشر فتك بها وهيا للغوث تنتظر ثم مضى في طريقة وأكمل وتوقف البساط ما بين مد وجزر إلى قاع البحار طريقاً وجد.. أسمع الصوت وعلت موجات الغضب لأنين العطشى من الأطفال وحاكت مياه البحر أهوار البلاد التي من العجائب غدت.. مر على بوابة الحضارات وهناك الدمع ذرف وأخبرهم أن سور وتاريخ ومعالم أثرية في نينوى اقتلعت.. رمال الأرض اهتزت وتكورت وعلت وأخبرت نخيلها أن تاريخ البلاد وحضاراته قد هوت..

مضى البساط في طريقه إذا بنهر ثالث غير دجلة والفرات شق طريقه لكنه بالسواد اتشح إنهم عشاق الحسين خرجوا حزناً على سيد الشهداء حفيد سيد الأنبياء وكل العالمين والبشر.. صمت وسكن وانحنى خجلاً وسجد وهناك كل ما جرى عند باب الحوائج قص وسرد وطلب الغوث وعقد عقدة الحوائج وما إن هم بالرحيل إذا بنهر العاشقين يتبعه مثل سحابة مطر ولبيك يا حسين صداها إلى الحدباء وصل رفرف البساط وابتهج وما أن التفت حتى وجد خلف النهر من كان في كنيسة العذراء واقفاً يتلو بسم الأب والروح القدس قال أمين ولبى النداء وبركب العاشقين انضم وأسرع وآخر رآه حاملاً شعلة نوروز أشعل بها نيران انتصار الخير ضد الشر قد أكمل الطريق وبركب العاشقين التحق مثل شبكة إخوة اجتمعوا كانوا فيما مضى في سهلها يعيشون قد وصلهم النداء والكل حضر، وفي مياه دجلة والفرات كانوا مرتدين البياض يغتسلون ويعمدون الطفل فقاموا مبللين بردائهم ومع الملبين للنداء قدموا..

ومن كانوا على سنة الحبيب ساروا وتصوفوا واعتكفوا عن الدنيا ومناجاة الله وبذكره أخلصوا لبوا النداء ولنجدة الأهل على ذاتهم فضلوا.. نطق البساط صابئي مندائي سني شيعي مسيحي كردي يزيدي شبكي تركماني الكل الآن عند أبواب أرض الحدباء وقف نادى كل من كان هناك بصوت واحد ونطق العراق هنا عند أسوار نينوى اجتمع.. تراصوا ووقفوا سمع

صوت الأرض تهتز وترتجف أصوات أقدام كانت من بعيد تقترب أصغت الحدباء فلوح لها البساط وقال ها هم إخوتكم في الأرض والدم والوطن فزفت البشرى قادمون أبناء بلدي..

عند سور نينوى رصت رجال حملوا الوية السلام والقلوب للموت لم تبالِ ولم تتراجع أو تنكسر فزفت المنارة لقلب المدينة الخبر وكبرت وبوصل الغوث أخبرت ولندائها الكل اجتمع.. ها هم أبناء العراق متراصين متوحدين لأجلك.. أرادوا تفريق صفنا وتقطيع كل أجزائنا ونثر أشلاء أبنائنا وطمس معالم تاريخنا ولم يعلموا أن العراق وبغداد شامخة ستبقى وسيبقى بساط علاء الدين الذي تحاكي به الناس عبر الأزل يخبر عن توحد صفنا وينقله لكل الأمم.

بعد قطع الاتصالات وشبكات التواصل الاجتماعية والإنترنت بصورة عامة لم يبقَ متنفس لأهل المدينة لمعرفة أخبار العالم سوى التلفاز والستلايت الذي كان يبث من خلاله كل قنوات العالم الفضائية. من خلال التلفاز أصبحنا نعرف كل ما يجري خارج المدينة. كانت هذه الأنباء تزيد من غضب التنظيم ونقمته على أبناء المدينة لأنه كان يرى فرحة بعض الناس بقدومهم.

مع أول نداء من المرجعية لأجل تشكيل الحشد المقدس لأجل تحرير المناطق المحتلة ومع إعلان التحالف الدولي لبدء العمليات حذرت قوات التحالف والقوات الأمنية الأهالي وأبناء مدينتي على الحذر لأن هناك استهداف للمنشآت والأماكن التي يستغلها التنظيم لأجل تحرير المدينة والمناطق التابعة لها كانت هناك عملية استهداف للأماكن الحيوية والأماكن السرية التي يستخدمها التنظيم ومقراتهم ذلك يكون عن طريق العناصر المجندين لصالح القوات الأمنية سراً أو عن طريق الإحداثيات التي كانت تلتقطها الطائرات المسيرة التي تجول في سماء المدينة لجمع المعلومات والتي كانت تستهدف من قبل التنظيم.

في أحد أيام في الساعة الواحدة ظهراً كانت منطقة المجموعة الثقافية تعج بالمارة وأصحاب المحلات والبسطات التي على الرصيف متواجدين في كل مكان والحركة كانت طبيعية وهدوء نسبي.. فجأة دوى صوت قوي وأعقبه انفجار صاروخ سقط على عمارة الأقسام الداخلية التي كانت مقابل المكتبة العامة تبدل ذاك الهدوء إلى صراخ رجال ونساء وأطفال وجثث وحريق ونيران توالت الصواريخ واحداً تلو الآخر وهدم بنايات تبلغ أكثر من خمس طوابق وجعلها مجرد ركام أصحاب المحلات تناثرت أشلاؤهم في كل مكان وأصحاب البسطات أغلبهم اختفى ولم يجدوا جثثهم أصبحت جامعة الموصل مثل مكان عصفت فيه ريح محملة بالغضب والشر وقلبت

المكان إلى مجرد تراب وقطع حجر متناثر وحديد مرمي بعيداً ودماء سالت في كل مكان. أكثر من خمسة عشر صاروخاً حسبما روت لي جارتنا عن أخيها الذي كان واقفاً هناك وأصيب ورغم إصابته بقي ينظر إلى حوله ويشاهد هول المنظر والجثث وكيف باتت المباني مع الأرض كأنها لم يكن لها وجود أسعفه صديقة دون أن يعلم ولازالت تلك الإصابة تشكل أكبر جرح له رغم أنه نجا من هذا العصف الكبير.

بعد هذه الضربة التي استهدفت أغلب العناصر الذين اتخذوا من الجامعة مركزاً لهم أصبح التنظيم أكثر حذراً في أماكن تواجده. وكان من أخطر المقرات التابعة لهم هي المضافة وهي عبارة عن منزل كبير مهيأ بكل لوازم الحياة الضرورية يتواجد فيه أو يسكن فيه عدد من العناصر ويكون بمثابة مكان استراحة للجند من كل الأصناف: الحسبة والمقاتلين والأمنية والكل وكان أغلب المضافات تقع في الأحياء السكنية بين الأهالي المدنيين والعزل مما يشكل حماية كبيرة للمقر لأن الطائرات تتجنب قصف الأماكن التي فيها مدنيين.

كان في الحي الذي أسكن فيه مضافة يعمل فيها أطفال صغار مجندين حين كانوا يحملون السلاح كانت البندقية تلامس الأرض لأنها تكاد تكون بنفس حجمهم.. صغار لا يعلمون ما يدور حولهم.

وحين بدأت عمليات التحرير في المدن والمناطق الأخرى وبدأ يفقد الأراضي التي سيطر عليها أصبح كل من في المدينة يعرف أن التنظيم زائل لا محالة وأن العمليات العسكرية التي يقودها التحالف ومع كل صنوف قوات الجيش العراقي أصبحت قوة ضاربة كبيرة تستعيد الأراضي بدون توقف لذلك قام التنظيم بإصدار قرار بمنع استخدام الستلايت وإزالة كل الأجهزة من المنازل عن طريق مفارز تقوم باستلام الأجهزة بنفسها وكسرها مباشرة أمام أنظار الناس دون تردد ومن يمتنع يعاقب ومن يعمل على إخفاء أي جهاز عقابه أشد وأقسى. بعد أن منع التلفاز أصبحت الحياة أشد وأقسى لأنه كان الأمل الوحيد في معرفة أين وصل الزحف والتحرير.

كان البديل الوحيد عن التلفاز والإنترنت ووسائل التواصل كلها الراديو حيث بدأ التنظيم بتوفير أجهزة الراديو للناس مقابل ضعف السعر والموجة الوحيدة التي تبث هي الموجة الخاصة بهم باللغة العربية والروسية أيضاً وكنا أحياناً نلتقط موجات أخرى ونعرف بعض الأخبار وبعد إعلان عمليات التحرير قامت الحكومة وقوات الجيش بتقوية موجات البث للإذاعة الخاصة بهم لأجل بث الأخبار التي تختص بالتحرير وبعض البرامج التي تتيح للناس التواصل مع من هم خارج المدينة عن طريق الرسائل الصوتية أو رسائل النصية التي ترسل من المناطق التي يكون فيها تغطية لشبكات الاتصال وكان وقد خصصوا رقماً لإرسال الرسائل السرية والمهمة وكان هناك

برامج تبث ويتصل الناس من داخل مدينتي ويروون ما يجري على الهواء مباشرة وهنا قام التنظيم بمتابعة البرامج ومحاولة رصد المتصلين الذين يسربون أخبار المدينة أو مواقع تواجد عناصر التنظيم وما يحصل فيها.

عرف الناس ذلك من خلال اختفاء وغياب أحد المتصلين بأحد البرامج وكان معروفاً لدى أبناء مدينتي يتصل بشكل يومي ويبلغ ويروي الكثير وعن طريق الصدفة روى على الهواء مباشرة ما حصل في منطقته قائلاً للمذيع: داهم التنظيم منطقتنا اليوم وطرق الأبواب ودخل عنوة إلى المنازل وقام بشق الفواكه والخضراوات بحثاً عن شريحة السيم كارت الخاصة بالاتصال رأيتهم من ثقب الباب وقبل أن يصلوا منزلي تهيأت وما أن دخل عناصر التنظيم إلى منزلي وحاولوا تهديد ابني وثم أعطوه هدية كي يتكلم لكنه لم يبح بشيء وقلت لهم ليس لدي أي شيء وابني الصغير أخفتموه لازال صغيراً. بعد انتهاء الاتصال مباشرة قام التنظيم بمداهمة منطقة المتصل وعرفوا منزله لأنه ذكر عمر ابنه والكلام الذي دار بينهم ومواصفات كثيرة دون قصد منه وقاموا باعتقاله وإعدامه بتهمة التخابر وتعليقه على عمود الكهرباء في الحي الذي يسكن فيه كي يكون عبرة لمن يحاول مقاومة التنظيم بأي طريقة.

ابني بدأ تحركاً جديداً وخفياً يظهر لكن ببطء وخوف وانتباه وهي مقاومة التنظيم عن طريق التعاون مع القوات الأمنية التي خارج المدينة وكانوا

مجموعة من الشباب وحالات فردية أيضاً. يقومون بنقل تحرك التنظيم وموقعه وكل الاعتقالات التي يقومون بها. وهناك حالات فردية مثل شخص واحد يأخذ على عاتقة مقاومتهم بمجهوده الفردي دون دعم من أي شخص.

أذكر لكم أحد شهداء المقاومة الذي كان ينقل معلومات مهمة وغاية في السرية كان يقوم ليلاً بإجراء اتصال من أحد الشوارع التي تكون فيها التغطية مؤمنة ومن هنا يتصل بأحد عناصر الجيش وينقل له كل ما يجري لكنه في أحد الأيام بينما كان يتصل إذا بأحد العناصر يكشف أمره وحاول الهرب ودخل في أحد الشوارع وكان فيه منزل صديق وطرق الباب وبقي عنده واستطاع الهرب أخبر صديقه بكل ما جرى وقال إنه سوف يبقى عنده لساعات قليلة منعه صديقة وطلب منه البقاء لمدة أطول كي ينسى العناصر تواجده لكنه رفض ومع أذان الفجر خرج ولم يستمع لصديقه وهنا كان العناصر يراقبون الحي بالكامل وقاموا بالإمساك به وإطلاق الرصاص عليه وتعليق جثته في الشارع الذي كان يتصل فيه بالقوات الأمنية.

وقصص كثيرة منها لشاب يخرج مع أذان الفجر ويتأخر لساعات طويلة خارج المنزل لم يكن له رفيق أو أخ يسير معه كان لوحده دائماً وكان غالباً يرتدي ملابس تجعله يبدو كأنه منهم لكنه في الحقيقة كان أحد أبطال

مدينتي كان يحرق هنا وهناك وكان ينتظر العناصر ويقوم بقتلهم ورمي الأوراق التي تهدد تواجدهم كان بطلاً بحق لكنه رفض أن يكشف عن نفسه وكل ما قام به.

حين بدأ التجهيز لعمليات التحرير بدأ التنظيم يزيد من تطويق المدينة أكثر فأكثر وبدأت الأمور تزداد صعوبة مع تضيق الخناق على أبناء المدينة ومع فرض المزيد من العقوبات لكل من يحاول أن يبدي استيائه مما يجري أو يظهر فرحة بقرب قدوم القوات الأمنية. أصبح الهواء كأنه في حالة انقباض أو انكماش أو كأنه يضمحل شيئاً فشيئاً كنت أحس بحالة غريبة مثل الذي يغرق ببطء ليس في مياه بحر أو نهر لا بل في رمال متحركة تبتلعني شيئاً فشيئاً ولا يد تمتد لإنقاذي.

سماء مدينتي ليلاً كأنها خيمة سوداء أبحث فيها عن ثقب ما أو عن غرزه خيط قد انسل منها بعض الأمل أو عن جزء بسيط تآكل بسبب الشمس لكن دون جدوى. النجم في السماء قد فقد بريقه والقمر يطل بخجل. أما نهاراً سماء مدينتي الزرقاء فوقنا ملاذاً لنا كي نخرج من قاع تلك البركة الموحلة التي كنا مرغمين عليها أرفع بصري أنظر بتمعن وآخذ نفساً عميقاً واختزل صورة السماء والضوء وبعض من الأوكسجين لأجل المساء القادم الذي يبدأ مع انطفاء أول نور للنهار. كان السير أحياناً أفضل متنفس لي ولزوجي وابنتي أحياناً تسير معنا كنت حين أخرج للسير أحمل حقيبة

صغيرة تحت الغطاء الأخير على الجسد أضع فيها ما أملك من أموال قد تبقت لنا من ثمن السيارة وبعض الأوراق الثبوتية وبعض المصوغات الذهبية البسيطة تحسباً إذا ما حصل شيء أثناء خروجنا أو اضطررنا للمبيت خارج المنزل أو الهرب؛ ربما الهرب هو أمل كنت أعيش لأجله تلك الأيام. كنا ننتظر الليل لنجلس بهدوء دون إحداث أي صوت ونشعل السجائر التي أصبحت جزءاً من حياتنا ولا يكمل يومنا إلا بها كنت أوهم نفسي أنها تسحب مني كل الحزن والمآسي كنا ننتبه للأصوات ونحن جالسون في حديقة المنزل الصغيرة منتظرين مرور الساعات الكئيبة والحديث لا ينتهي ويتجدد في كل يوم.

كان أكثر ما يشغل بالنا هو النجاة والخلاص.. نعم إنه أمر قد تركناه لله سبحانه وتعالى بيده كل شيء لكن يبقى الطبع البشري سائداً عليه حب الفضول ومعرفة الغد والمستقبل لكن مع وضعنا نحن كان كل شيء ممنوع حتى التوقع أو التنبؤ غير مسموح.

بعد أن عرف الناس أن هناك تحرك لأجل التحرير كانت الإشاعات كثيرة.. هناك من يقول أنّ المدينة سوف تباد وهناك من يقول أنّ التحرير لأحد الجوانب والآخر لا وهناك من يقول أنّ الرجال سوف تأخذهم القوات الأمنية لأنهم لا يثقون بأحد من أهالي المدينة. كان الكثير يحاول الهرب عن طريق المهربين لكن هذه المرة بمساعدة عناصر من التنظيم ممن حاولوا أن

يجدوا مصدراً للمال وكانت أساليب النقل هذه المرة مختلفة وبها خطورة كبيرة حاولت مرة أخرى أن أقنع زوجي بالهرب لأن التصادم الذي سوف يقع بين القوات الأمنية والتنظيم لذلك كنت أحاول جاهدة بكل الطرق أن أجد أي وسيط كي ينقلنا ويسهل أمر الهرب.

لكن الهرب هذه المرة كان عن طريق تجمعنا في منزل أحد المهربين ومن هناك تأتي سيارة حمل كبيرة (لوري) كانت كأنها محملة بلبلوك لكنها بالحقيقة كانت عبارة عن كرفان تم وضعه في داخل سيارة الحمل ووضع فوقها الحجر وحولها بعناية ليبدو لمن ينظر أنها بالفعل سيارة لحمل الحجر وهذا الكرفان الذي في السيارة هو غرفة خالية من كل شيء فيها فقط فتحة صغيرة للتهوية وضوء خافت يستعمل هذا الضوء لتنبيه الهاربين أن هناك سيطرة للتنظيم ويجب التزام الهدوء وكان كل الهاربين الجالسين داخل الكرفان يجب أن يكون الأطفال الذين معهم هادئين تماماً.

كانت إحدى العائلات الهاربة لديها طفل صغير وكان يبكي بسبب الظلام والمكان المزدحم المكتظ وحين أضاء الضوء لتنبيههم قامت الأم بغلق فم الطفل كي لا ينكشف أمرهم وحين إطفاء الضوء ليعلمهم أنهم تجاوزوا الخطر رفعت الأم يدها من على فم الطفل لأنه سكت وأصبح هادئاً تماماً لا بل نام لكنه في الحقيقة كان قد نام إلى الأبد؛ مات بسبب ضغط يدها الشديد بسبب التوتر الكبير وفقدته كان هذا ثمن الهرب من التنظيم من

جحيم العيش معهم إلى جحيم أكبر وهو فقدان قطعة من جسدها. وعائلة أخرى كانت تروم الهرب ما أن دخلوا المنزل الذي يلتقي فيه الهاربون قبل وصول سيارة الحمل جاء شخص ونبه المهرب أن هناك دورية قريبة تبحث عن المنزل وقد كشف أمرهم فأخذت العوائل كلها تهرب يميناً وشمالاً ومن اعتقل تم قتلهم بعد ذلك.

كان أحد أقربائنا من بين هذه العوائل لكنهم حاولوا مرة أخرى وهذه المرة استطاعوا الهرب ووصلوا إلى سوريا إلى إحدى مناطق التي تسمى بالأرض الحرام بين طرفين متنازعين وهناك فتح الطرفان النار وأصبح الهاربون وسط كل هذا الرمي العشوائي ومات الكثير منهم واستطاع أقربائي الهرب والعودة إلى المدينة مرة أخرى.

وكان في الحي رجل صديق زوجي متزوج ولدية طفلان قام ببيع سيارته ووجد أحد المهربين بنفس الطريقة الخطرة لكنه حكى لنا كل شيء وبالتفصيل وقال محمد: حين خرجنا بسيارة الحمل قمنا بإعطاء الدواء المنوم لابنتينا وكذلك فعل كل الهاربين بأطفالهم قاد المهرب السيارة في الساعة الحادية عشرة ليلاً وكان يقف بين الحين والآخر يشعل الضوء لنا كتنبيه لنا أننا نقف عند نقطة تفتيش تابعة للتنظيم ويبقى لدقائق ثم يعود ويطفئ الضوء مما يدل على أننا تجاوزنا الخطر وهكذا إلى أن توقفت السيارة وفتح الباب لنا وكان الليل لا زال مخيماً؛ نزل الجميع من السيارة التي كانت عبارة

عن قبر للموت الجماعي. كنا داخل قرية لا نعلم ما هي أو أين نحن أو ما اسمها ممنوع السؤال تم توزيع العوائل في سيارات ويقودها أحد عناصر التنظيم أو أحد السواق المسموح لهم بالعبور كان الأمر واضحاً والتنسيق أيضاً والأمور تمشي بسلاسة وأمان أخذتنا السيارة وكانت نقاط عناصر التنظيم لا يسألوننا شيئاً أبداً وصلنا الحدود السورية وهناك توجهنا نحو منطقة قام السائق بتركنا بالقرب من منزل مهجور كبير وقال انتظروا هنا سوف يأتي المهرب الآخر كي ينقلكم باتجاه تركيا.

دخلنا المنزل وكانت المفاجأة الكبرى لنا هو عبارة عن منزل كبير أو مثل قاعة كبيرة لا جدران تفصل بينها كي تكون غرف لأجل الجلوس براحة لأي واحد سوى أغطية وفرش متسخة وبالية جداً وأواني للطعام متسخة لم تغسل أبداً وعوائل تجلس منتظرة قدوم المهرب السوري أيضاً، وهناك من قد تجاوز وجوده أيام وأسابيع وكان الشتاء قاسياً جداً عليهم فهم في مكان منقطع لا يوجد فيه أي وسيلة للتدفئة أو حتى يصلح للعيش حاول محمد الاتصال بالمهرب العراقي لكن دون جدوى فالهاتف مغلق وطلب منه الانتظار هنا وعدم ترك المكان وهو في حيرة من أمره هل ينتظر أم يعود أدراجه بأي طريقة. كان يخاف على البنات وأمهم لأنهم في بلد لا يعرفون فيه أحد وهو خائف أن يطمع فيما يملك أحد المتواجدين الذين نفدت أموالهم في هذا المنزل المهجور. قال محمد أنه كان يحصل على الطعام عن طريق المشي

إلى مكان يبعد حوالي ساعتين وأكثر ليشتري دجاجة صغيرة مع خبز بخمسين ديناراً ولا بديل للدجاج فهو محل وحيد في منطقة منقطعة فقط لا يمر بها سوى بعض السيارات لمسافرين أو مهربين بقي الوضع لمدة خمسة عشر يوماً ولا أثر للمهرب العراقي أو السوري وبعدها بيوم واحد جاء المهرب السوري وأخذنا سيراً على الأقدام باتجاه مدينة تل أبيض التي تقع على الحدود التركية وهناك انتظرنا أن يحل الليل كي لا يرانا الجنود الأتراك وبالفعل استطعنا مع رحيلهم الخروج بهدوء والعبور ولكن هناك تم إلقاء القبض علينا بكمين معد سابقاً قاموا باعتقالي وترك زوجتي وابنتي تم استجوابي لمدة يومين وبقيت زوجتي في الشارع تنتظرني هي وابنتي وبعدها خرجت وسمحوا لنا بالدخول إلى تركيا.

كان هناك حالات تهريب لعوائل مطلوبة وكان المهرب يعرف أن هذا الشخص مطلوب لدى التنظيم فكان يقوم ببيع العائلة أو الشخص الهارب إلى التنظيم في منتصف الطريق. وهناك حالات كثيرة لعوائل هربت وقام المهربون بقتلهم بعد أن أخذوا أعضاءهم البشرية. كان التهريب تجارة مربحة بكل الأحوال لكل الأطراف فقد وصل ثمن النقل للشخص الواحد حوالي أربعين ورقة فالاستفادة إذا لم تكن من الأموال تكن من الأبدان والأعضاء وبأي طرق لا تخطر على البال.

بدأت الحياة تزداد صعوبة كلما وصل خبر خسارة التنظيم لأحد المناطق كان يزيد من أحكام الطوق على المدينة كان أهالي المدينة بعد أن توقفت كل سبل الحياة والعمل لم يكن بيدهم سوى بيع ما يملكون.. أبسط الأشياء كانت تعرض للبيع ملاعق للطعام أواني شراشف بالية أغطية قديمة ملابس وصل الحد أن رأيت أحد الجيران في شتاء بارد يسحب السجادة من تحت أبنائه ويبيعها كي يجلب لهم الطعام. كنت حين أسير في الشارع أرى الناس قد بدا الفقر يبدو عليها ووهنت الأجساد لقلة الطعام وهم يقفون ويأكلون ولا يأبهون لأحد كان منظر كبار السن يقتل كل المشاعر في داخلي.

كبير في السن حنى الدهر ظهره ولم يبقَ له معيل بعد أن قتلوا أبناءه الثلاثة وأصبح المعيل لأيتام كثر يبيع الكبريت الذي مضى علية سنين ولم يستخدم وآخر يبيع أكياس من النايلون وعجوز تغطي وجهها وتبكي وتبيع أكياس وتخجل أن ترفع رأسها. كنت أسير من الأيسر إلى الأيمن قاطعة الجسر القديم سيراً على الأقدام كي أتنفس قليلاً لكن دون جدوى فمناظر الفقر والجوع تسرق أنفاسي المتبقية وتجعلني أجهش بالبكاء طيلة الطريق.

حين أصل إلى الجسر القديم والعتيق مثلما نطلق عليه أقف عند الماء أنا وزوجي وابنتي نطعم النوارس التي تحلق والتي لزمت الأرض مثلنا ولم تغادر وتتركنا. كانت أوفى من كثير من البشر لكن النهر حزين وحزنه انطلق إلى

السماء واختزل الحزن بهدوء.. كانت السماء كأنها تشعر بنا.. سبحان الذي جعل كل شيء حياً. كل شيء في المدينة حزين؛ جدران المنازل تراب الأرض الذي تشبع من دماء أبناء مدينتي.. الروح التي بدت ميتة في داخلنا بسبب القهر الذي تعرضنا له لا نستحق كل هذا أبداً لكنها أمر الله يبدو وقد نُفذ.

كانت قسوة الحياة قد أظهرت حقيقة أناس كثر من حولنا لم نعرف أنهم قساة القلوب لا رحمة ولا إنسانية لديهم وكيف أننا نموت والبعض ممن هم خارج المدينة يحتفلون بكل المناسبات بدون خجل.

الكثير كان يهرب وينسى المحاصرين مهما قالوا إنهم عانوا وتشردوا لم يكن وضعهم مثلنا أبداً وسوف يسأل الكثير لِمَ تهربون ولم بقيتم هناك؟ لم نكن مناصرين ولا موالين لكن كانت هناك أسباب عدة للبقاء أذكر منها: الفقراء الذين لا مكان لهم كي يقصدونه خارج المدينة ولا مال لديهم كي يستأجروا في أي مكان. العصاميون الذين جاهدوا لأجل منزل يحميهم ويصون كرامتهم وخافوا أن يذهب كل ذلك التعب سداً.. الأغنياء الذين رفضوا تركوا منازلهم وما يملكون وتذهب بسهولة والمحبون للأرض والمدينة الذين فضلوا الموت على تركها وآخرون حاولوا الهرب أو الخروج مات منهم أو فقد منهم أحد وعادوا مرة أخرى أو لم يصلوا إلى بر الأمان ولم تعد لمدينة سوى أخبارهم بأنهم فقدوا وآخرون موالون لهم، نعم، ومناصرون وخير عون لهم وآخرون كان الخوف على العائلة والفتيات

والزوجات أكبر سبب كي لا يخرجوا ويضعونهم في مخيمات لا تصلح للعيش مهما وفروا فيها من وسائل للعيش.. كان الستر سبباً لكثير من الناس لعدم الخروج. عادت المدينة الى العصور القديمة في إيجاد وسائل للعيش بدلاً من كل الوسائل التي كانت متاحة سابقاً. قام الناس ببناء تنور للخبز من الطين واستخدام الجولة.

اتحدت الدول العظمى وكونت لنا التنظيم.. كان هذا بالنسبة لهم جيشاً إسلامياً مصغراً يقودهم شخص ويحمل راية الإسلام ونهج الإسلام وسنة محمد كان لأغراض وأسباب كثيرة؛ الأول سري لا يفهمه إلا من كان له اطلاع وقدرات في عالم الباطن وانتظار المهدي والمسيح والدجال، والآخر كان اختباراً إذا ما اتحد العالم وأصبح تحت لواء وراية الإسلام في يوم فهل يمكن أن يهزم أم لا كونوهم وضعوا لهم قوانين إسلامية دينية. كان الإقبال كبيراً للانتماء لهذا التنظيم الذي سوف يغزو العالم ويعيد أمجاد المسلمين والإسلام والفتوحات وانتصارات الجيوش العربية. كان اختباراً بسيطاً أجري في دولتين العراق وسوريا، وبعد القوة التي اكتسبوها والعزيمة التي لديهم بحبهم للإسلام ونصرته في كل مكان سحب البساط من تحت أقدامهم وجعلوا القوانين تميل وتكون كمتطرفة والدم هو الشعار لهم وعناصر التنظيم اتبعوا التعليمات مادامت كانت تصدر من الخليفة أياً كانت بدون النظر أو الانتباه إلى التغيير الذي حصل فيها وتوالت النكسات عليهم

وبعدها قاموا بإزالة التنظيم ومقاومته ذات الدول التي صنعته وبعدها قامت بتشتيت الدول الإسلامية وجعلها في حروب دائمة فما بينها وفي داخل الدولة الواحدة كي تمنع اجتماعهم من جديد وكي لا يكون قوة ضاربة تجاه أي مخطط تجاه أي دولة عربية ومسلمة.

سرقوا الفرح وجعلوه مثل زجاج أمامنا كلما نظرنا من خلاله رأينا الموت والظلام ثم أخذوه وكسروه وحطموه بمطرقة التطرف شتتوا أجزاءه كي لا نستطيع إعادة لملمة قطعه بعد أن يرحلوا كانوا قد وعدونا بأنهم لن يرحلوا لا إذا رحلنا معهم أو ماتوا معنا هنا.

كان التنظيم يمنع السؤال عن أي معتقل ويرفض مبدأ الوساطة لأجل أي أحد كانت الأمهات تجلس عند أبواب الدوائر الأمنية تنتظر أي خبر عن المعتقلين من الرجال والنساء. كان الكل يخاف من أن يسأل عن عمي.. كنا نعلم أنه كمين لجر باقي أفراد العائلة نساءً ورجالاً.

في أحد الأيام عمّت الفوضى والتوتر في المدينة وسمعنا أن هناك قائمة علقت على جدار المستشفى العام في الجانب الأيمن فيها أسماء لمعتقلين تم ذبحهم ويبلغ عددهم ألفين وسبعين فرداً نساءً ورجالاً ولا جثث لهم فكلها قد تم رميها في حفرة الخسفة في منطقة حمام العليل أو أسباب أخرى. جاءنا الخبر ولم نعلم من سيذهب لرؤية القائمة فهذا مثل كمين آخر لذوي

المغدورين. خال والدي الأكبر قال أنّه سيذهب ليتأكد مما يحدث ومن صحة الخبر. عاد حزيناً لينقل لنا خبر ذبح عمي وأبناء عمه وأن أسماءهم مدرجة في تلك القائمة.

لو كان في هذه الورقة روح لنطقت بما حملته في طياتها من دماء وظلم كادت أن تصرخ الأرض وتتحدث عن الظلم الذي حصل لأبناء المدينة وعن القهر الذي بدأ مشواره مع نزول تلك القائمة وانجلاء الستائر وسقوط للأقنعة المزيفة التي استمالت بعض ضعاف النفوس من الخونة وعبدة المال والسلطة لكن فات الأوان ومدينتي وحيدة تصرخ ولا يسمعها أحد تركها الكل مثل ورقة رميت في وسط البحر وتلاشت عند أول موجة لامست أطرافها.

الفصل الحادي عشر

بداية النهاية

المشي من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن عن طريق عبور الجسر القديم في المدينة الرابط بينهما كان الوسيلة الوحيدة لإخراج الغضب أو الحزن أو الوجع الذي بداخلنا كنا نسير ذهاباً وإياباً بدون تعب أو حتى شعور بالوقت. هكذا كنا نقضي على الوقت الذي كان يسير ببطء كبير كنا نسمع عن طريق جهاز الراديو الذي يعمل على البطارية أو الشحن كل ما يجري خارج المدينة. كانت العمليات في أقضية ونواحي الموصل في المحاور الأربعة للمدينة.

كان الأهالي الساكنين في تلك القرى والأقضية قد تركوها واتجهوا إلى داخل المدينة خوفاً من المعارك وكان الكثير من شباب القرى قد قاموا بالانتفاض على التنظيم حين عرفوا بقرب القوات الأمنية. لكن التنظيم استطاع معرفة كل من حاول الانتفاض أو انتفض وقتل وقاموا بشن حملة إعدامات في شوارع إحدى القرى جنوب المدينة كانت مجزرة كبيرة بحق رجال تلك القرية بسبب اختيار التوقيت الخاطئ وإعلان الثورة على التنظيم.

وفي إحدى القرى قام التنظيم بترك القرية وبعدها بساعات تفاجأ أهالي القرية بدخول عجلات عسكرية تعود للجيش العراقي. كانت الفرحة كبيرة بل لا توصف لأن التنظيم قتل الكثير من رجال القرى لأن أغلبهم كانوا ينتمون لأحد صفوف القوات الأمنية.

خرج الرجال والنساء والفرحة جعلت الدموع تنهمر شوقاً إلى الحرية والخلاص ركض الكل إلى الجنود ولا يعلمون كيف يعبرون عن فرحتهم بادلهم الجنود الفرحة وبدأت الأهازيج ومظاهر الاحتفال وقف أحد الجنود أمام الناس المتجمهرين وفتح النار وبدأ يطلق النار عليهم وقام جنود آخرين باعتقال النساء والرجال تبين فيما بعد أنهم عناصر التنظيم متخفين في زي الجنود العراقيين كي يعلموا من هم الخونة الذين لا يرغبون ببقائهم وينتظرون دخول القوات الأمنية حصلت هنا مجزرة أخرى كان السبب تسرع المواطنين بالاحتفال دون التأكد من هي الجهة القادمة والتأكد من صدق المدعي.

وفي قرية أخرى دخل عناصر من الجيش العراقي وهرع أحد الشباب مرحباً بهم وقال لهم أنه مصدر أو مخبر للقوات الأمنية لأحد الضباط فرحب به الجنود واتصلوا بالضابط وتأكدوا منه أنه مصدر لنقل الأخبار للقوات الأمنية وأمام الجميع قاموا بذبحة بالحال وتعليق رأسه في مدخل القرية ظهر أيضاً أنهم عناصر من التنظيم وليس جنود من القوات الأمنية وقد أسرع ولم ينتبه لصدقهم.

وكان في إحدى القرى في جنوب الموصل حادثة غريبة جداً حصلت مع رجل يمتهن الحدادة كان التنظيم يحاول أن يخلي المنازل ويخرج كل الناس من هذه القرية كان الحداد لا يرغب في ترك منزله لأن له بنات وأولاد كثر

ويخاف عليهم من قسوة الظروف لذلك قام هذا الحداد بتجهيز غرفة بكافة المستلزمات من ماء وطعام وقام بقفل الغرفة عليه هو وأولاده بطريقة تبدو للآخرين أنها غرفة خالية وترك باب الدار مفتوحاً كي يبدو أنه مهجور وبالفعل دخل العناصر إلى المنزل ورآهم من ثقب صغير مخفي صنعه هو ولم يجدوا أحداً وقالوا لبعضهم أن المنزل خالٍ وخرجوا منه.

حل الليل وساد الهدوء فجأة سمع الحداد صوت اقتحم أجواء الهدوء.. أنها طائرات هليكوبتر كان حذراً جداً لأن هذا يدل أن معركة ستحصل بعد قليل كان هو وعائلته سعيدين لأن الإغاثة قد وصلت والحرية باتت قريبة منهم لم يبقَ شيء وخرجوا من تلك الغرفة وكان الفضول كبيراً لديه لذلك حاول أن يعرف ماذا يحصل استرق السمع أكثر من خلف باب منزله ونظر من خلال الثقب الذي أحدثه في الباب مسبقاً فسمع أصوات أناس يتحدثون بالقرب من منزله وشاهد عناصر من التنظيم يقفون مع أناس بزي عسكري غريب ويتحدثون لغة أخرى غير العربية تحدثوا لقرابة نصف ساعة وكان الوضع هادئاً ويبدو أنهم على معرفة مسبقة ببعض وأن هناك عمل أو شراكة تجمعهم ألقوا السلام على بعضهم ورحل الطرفان وهنا بقي الحداد متفاجئاً مما رأى بقي صامتاً للحظات ثم أسرع و صرخ على أبنائه وزوجته وطلب منهم الصمت والعودة إلى الغرفة وأقفل الباب وجلس حزيناً لا يعلم ماذا يقول فقط أوصاهم بالصمت والحذر وقال لزوجته بحزن

إنها لعبة كبيرة على أبناء المدينة. في صباح اليوم التالي استيقظ الحداد وأبناؤه وزوجته على أصوات عربات عسكرية وأناشيد وطنية حاول التسلسل والوصل للسطح لوحده ليعلم ماذا يحصل لأنه خاف أن يكون لقاء آخر من أجل التفاوض لكن هذه المرة رأى أن عناصر التنظيم قد انسحبوا ودخلت القوات المحررة بإسناد طيران التحالف وتم التحرير بدون قتال عرف وفسر ما الذي حصل. ولم يخرج هو وعائلته من الغرفة تلك إلا حين شاهد العوائل تعود للقرية واحدة تلو الأخرى وبعد مرور يومين من عودة البعض تظاهر أنه عاد هو أيضاً وكأنه لم يشاهد أو يرى أي شيء لكنه حمل في داخله حزناً وألماً وقهراً وتساؤلات كيف لإنسان أن يبيع أرضه مقابل كرسي السلطة أو مطامع، كيف له أن يسمح بإراقة دماء أبناء بلده؟ لكن يبدو أن المال والسلطة كفيلان بتجريده من الإنسانية.

في قرى أخرى تفاجأ التنظيم بدخول سريع وغير متوقع ومباغتة من قبل الجيش لذلك قام التنظيم بالانقسام إلى عناصر تقاتل والأخرى تأخذ أبناء القرية كرهينة والهرب باتجاه المدينة كي تمنع الطائرات العراقية والتحالف الدولي من قصفهم أثناء الهرب بسبب تواجد المدنيين.

كانت تصلنا أخبار عن تحرير بعض القرى وفي بعض الأحيان فقدان السيطرة وعودة التنظيم. كان إعلان بدء التحرير يختلف في كل مكان عن

الآخر كنا نسمع بقرب تحرير مركز المدينة ولكن المقاومة الشرسة كانت سبباً كبيراً في تأخيرهم بالوصل إلى المدينة.

حين أصبحت القوات الأمنية قريبة من جانبي المدينة كان عناصر التنظيم ينكرون ذلك وكأنهم يحاولون إنكار أن هناك تواصل مع من مهم خارج المدينة وينكرون الأخبار التي تردنا من كل مكان والتي نسمعها من خلال الراديو الذي أصبح فيما بعد ممنوعاً منعاً باتاً لذلك كان التنظيم ينشر عناصره في كل مكان ومعهم جهاز يقتربون من المنازل معهم جهاز يحاول التقاط الذبذبات التي تحدثها أجهزة الراديو أو الموبايل ليلاً.

كان يجب قطع الإمدادات العسكرية والغذائية والبشرية التي تصل إلى التنظيم من خارج المدينة بأي طريقة فقد كان العناصر يتوافدون من كل مكان لأجل المعركة الكبرى والدفاع عن عاصمة الخلافة لذلك كانت المدينة في حالة فوضى كبرى.

مقاتلون أجانب يتوافدون وتنظيم يخطط ويصنع السيارات المفخخة وعناصر منتشرة في الشارع واستعراض للقوات والقدرات القتالية لهم في شوارع المدينة وأناس يقبلون على شراء المواد الغذائية.

قامت الحكومة بإعطاء تنبيهات عبر الراديو وتعليمات وإرشادات أهمية تخزين المياه الصالحة للشرب والغذاء والنفط والحطب وعن توفير أدوات

للإضاءة مثل الشمعة والفانوس لأن الدولة سوف تقوم بقطع ومنع إمدادات الغذاء والكهرباء والمياه التي يستفاد منها التنظيم وتساعده على ديمومته والبقاء فترة أطول والمقاومة كما يرغب هو والتمسك بالأرض لأن الخليفة قد أمرهم بمسك الأرض والقتال حتى الموت. كانت الكهرباء الوطنية قد قطعت تماماً لأنها كانت تستخدم من قبل التنظيم في تشغيل آلات الحدادة التي تصنع السيارات المفخخة والعبوات اللاصقة والمتفجرات بأنواعها. لأن التنظيم كان قد جمع عدد كبير من السيارات لأجل تجهيزها للتفخيخ كلما خسر التنظيم إحدى القرى المحيطة بالمدينة كانت قسوته تزداد على أبناء المدينة أكثر ويزيد من التشديد في الإجراءات المتبعة.

كما أنّ بعض عناصر التنظيم بدأ التذمر واضحاً عليهم بسبب انعدام الراتب وقلة الغزوات بل انعدامها مما أدى إلى انعدام الغنائم التي توزع على العناصر. كانت المستشفيات قد قل فيها الدواء ولوازم الطبية وانحسر الدواء وأدوات ومستلزمات الطبية على التنظيم وعناصره.

كنت أرى الناس من حولي ويزيدني ذلك حزناً وألماً كان الأسر يسرق من عمرنا الكثير ونحن بلا حول ولا قوة. كانت الكهرباء تعتمد فقط على المولدات الكبيرة الأهلية والخاصة وبدا أصحاب المولدات بتقليل ساعات التشغيل بسبب قلة الماء والنفط وأيضاً بسبب انسحاب الكثير من المشتركين بسبب الحالة المادية وعدم قدرتهم على دفع ثمن الإشتراك رغم

أنه لم يكن يتجاوز العشرين ألف دينار لكن انعدام المال هو السبب في ذلك.

كان مصطفى حريصاً على توفير كل شيء فقمنا أكثر من مرة بشراء المواد الغذائية وتخزينها وشراء كل ما يلزم من ماء للشرب ونفط وكل شيء وبعد انقطاع الكهرباء الوطنية لم نتمكن من صناعة الخبز في المنزل لأن التنور الخاص بصناعة الخبز كان كهربائياً. لذلك اعتمد على محلات الخبز والأفران في شراء الخبز لنا.

كان الماء لا يأتي إلا نادراً والضخ للمدينة يكون بين فترات بعيدة ومتفاوتة لذلك قام أصحاب المنازل بحفر الآبار في داخل المنزل وقد يكون الماء الذي داخل البئر حلواً وصالحاً للشرب أو قد يكون غير صالح للشرب وفيه شوائب ويؤثر على الصحة وكذلك استخدامه يصيب الإنسان بالحساسية لكن على الأغلب كانت الناس مجبرة على استخدامه بسبب انقطاع الماء لذلك لا خيار أمامهم. ومن لا يستطيع حفر البئر يعتمد على الجار الذي قد يكون كريماً ويخصص ساعة لإعطاء الماء للجيران والمحتاجين.

كنت أنتظر مجيء الماء فلم يكن لدينا بئر في المنزل وحين يأتي يكون ضخ الماء لساعتين فقط كنت أسارع في ملء كل ما لدي من أواني وأغسل الملابس وأحمم ابنتي وذلك عن طريق غلي الماء بوضعه في قدر كبير على

المدفأة أو أداة الطبخ التي نسميها الجولة أضعها في الحمام وأضع القدر عليها وحين يغلي أقوم باستخدامه ووضع قدر آخر في نهاية الليل أذهب إلى فراشي وأنام مثل جثة هامدة ولا أصحو إلى في ساعة متأخرة من النهار.

اتصلت بأهلي في أحد الأيام ورد والدي على اتصالي كانت الساعة التاسعة صباحاً كنت أريد معرفة الأخبار وما يجري حول المدينة قال لي والدي سأقول لك شيئاً ولا تحزني لقد قتل أثناء القائهم لخطاب ومحاولتهم لإقناع الناس للانضمام إليهم وجمع الرجال للقتال في صفوفهم فقد أبدى رفضه لكلامهم مما جعلهم يقومون بقتلة. كانت قسوة الأخبار تصيبني بحالة غريبة لا يمكن وصفها أقفلت الهاتف وخبأته وعدت إلى المطبخ وأعددت الفطور وتمالكت أعصابي أمام زوجي وابنتي لكن عندما حاولت الجلوس معهم والإفطار بصورة طبيعية أحسست بأني اختنق ولم أقدر على الحديث ونزلت الدموع بلا استئذان وغرقت في حزن شديد وأخبرت زوجي بما حصل. كانت الأحداث تأتي متسارعة جداً دون توقف أو وقت كي آخذ نفساً عميقاً وأستطيع المقاومة والمضي قدماً.

اتصال آخر من عمتي أخبرتني أن التنظيم اعتقل عمي الآخر كان فقير الحال جداً لا عمل لدية ولا مال يعتمد على ما يرسله والدي له وعمتي الكبرى أم محمد. أتذكر زرته ذات مرة وكان يأكل الخبز مع الشاي لوحده بدون أي شيء آخر وكان أولاده يرتدون ملابساً بالية أسرعت للسوق

واشتريت لهم ملابس بسيطة وأخذتهم للمنزل وأعطيتهم مواد غذائية طحين ورز واشتريت لهم عشاء جاهزاً. والآن ماذا سيفعلون أطفاله من دونه وماذا سيفعل التنظيم له هل سيكون مثل عمي الآخر مجهول المصير سيقتل في الحال.

كانت الأنفاس تتسارع في صدري مثل قطار مسرع يمر من أمامك ولا تراه فقط تشعر بكتلة كبيرة من الهواء مرت أمام وجهك كادت أن تخنقك ثم اختفت.

كان التنظيم يعد العدة وينتظر التحرير لمركز المدينة مدينة الخلافة المدينة الوحيدة التي ظهر فيها الخليفة وأعلن من أقدم منابرها وأعرقهم قيام دولة الخلافة الإسلامية واختيار مدينتي عاصمة الخلافة كان التمسك بها شديد وقد ألزمهم الخليفة الدفاع عنها والتمسك بأرضها مهما كلف الثمن. لذلك قام التنظيم بإعداد العدة واتخاذ تدابير وإجراءات كثيرة جداً كانت تتم بسرية إلا أن التسريبات كانت تتم عن طريق سماع أصوات وترصد تحركات لهم. فكنا نسمع أصوات في المنازل التي يقطنها عناصر التنظيم لم نكن نعلم ما هي لكن فيما بعد تبين أنهم قد حفروا انفاقا تحت المنازل وبين شارع وأخر وبين حي وحي وكان هناك أنفاق تقودهم إلى أماكن بعيدة كانت هذه الأنفاق الوسيلة المثالية لهم للتنقل من مكان لآخر وعدم رصدهم من قبل الطائرات المسيرة والحربية. وكان إحداث فوهة كبيرة في

الجدار الذي يفصل منزل عن منزل آخر بقربه وهنا كان التنظيم يعد الوسيلة اللازمة للهرب والتنقل من حي لآخر عن طريق تلك الفوهة أو الثقب الكبير الذي يعمله في الجدار كي لا يضطر أن يركض في الشارع ويكون عرضة لنيران الجنود والقوات الأمنية والقناصة.

البنايات المرتفعة كان لها النصيب الأكبر حيث قام التنظيم بنشر كل قناصته في أعلى البنايات في كل المناطق والإحياء بدون استثناء حتى في منارات الجوامع في الأحياء السكنية. وكانت المجاري التي في الشوارع قد استغلها التنظيم كي تكون امتداد لأنفاقهم كي تكون بديلاً لهم للتنقل تحت الأرض بدلاً من أن يكونوا في الشارع. وأيضاً قاموا بنصب منصات لإطلاق الصواريخ وقذائف الهاون في الأحياء السكنية وذلك لأجل أن يتجنب الطيران استهدافها بسبب وجود المدنيين.

أما عن السيارات المفخخة المحملة بالمواد المتفجرة فكان لها الدور الأكبر في التهيؤ لصد أي هجوم على المدينة فكانت أعداد السيارات هائلة جداً ووضعت عند مداخل المدينة والإحياء السكنية وتحت الساتر الترابية وداخل المنازل في كل الأحياء وهذا لوحده كان كفيلاً بإثارة الرعب بيننا.

وكان الانغماسيون لا بل كل العناصر يرتدون الحزام الناسف لأنها ساعة الشهادة والهرب والاستسلام مستحيل. وكان انتشار العناصر كبيراً جداً

ومنع التجمع كي لا يكون هناك حديث عن التحرير أو الانتفاض ضد التنظيم مع اقتراب دخول القوات الأمنية. كان أي تجمع يؤدي إلى اعتقال المتجمعين مهما كان سنهم. وكان التنظيم قد زرع المندسين من عناصره الاستخباراتية بين الناس. في الصباح وبعدان سمع الناس بإعلان ساعة الصفر انطلاق عملية التحرير كانت حالة الذعر كبيرة. كانت عملية التحرير للقرى المحيطة قد انتهت وتركت ثغرة كبيرة لأجل هروب عوائل من داخل المدينة وهذا كان يتطلب مغامرة كبرى ومستحيلة أودت بأرواح أناس كانت تنتظر الحرية لكنهم لم ينجوا خلال عملية الهرب تلك.

كانت المدينة تمد بالكهرباء بواسطة المولدات الأهلية فقط كما ذكرت وكان بسبب قلة المياه وانقطاع النفط الذي يشغل تلك المولدات عمل أصحاب تلك المولدات على تقليل ساعات التشغيل فكنا نقوم بشحن الهواتف التي كنا نخبئها بين الحين والآخر. كنا نتابع الأخبار عبر الراديو بشغف وننتظر الإعلان عن بدء عملية التحرير داخل المدينة بعد انتهاء العمليات حولها كانت القوات قد أعلنت عن إيقاف عمليات التحرير لأسباب لا نعلم ما هي. طال انتظارنا والوصول إلى الحرية أخذ يصبح أبطأ بكثير. كنا نسمع الأخبار أيضاً بطريقة أخرى غريبة وفيها رعب لكن الكثير من الناس كان الملل وقلة الصبر تدفعهم لإيجاد سبل مختلفة لإخفاء جهاز الستلايت ومشاهدة القنوات لفضائية ومعرفة آخر الأخبار وكان جارنا أبو دنيا قد

وضع جهاز الستلايت في الفناء الخلفي لمنزله وكنا نسمع صوت التلفاز عن طريق النافذة القريبة من نافذة غرفتي. حاولنا تقليدهم وقمت أنا وزوجي وأخوه بوضع جهاز الستلايت في السطح، ووضعنا فوقه كل ما لدينا من أشياء قديمة في المخزن من حديد وغيرة كي لا يلاحظه أحد لكنه لم يعمل. لكن كانت هناك طريقة لتشغيله ووضعه في حديقة المنزل لكن عن طريق مختص يأتي للمنزل مقابل مبلغ مادي لا بأس به ونصبه وإخفائه لأن التنظيم كان يسير دوريات راجلة تدخل المنازل فجأة وتفتش عن أي اختراق لقوانين التنظيم. وكنت أكثر الأوقات أعرف أن هناك عملية تفتيش ودهم للمنازل عن طريق جارنا فقد كان يصرخ على الأولاد ويقوم بإخفاء الصحن أو اللاقط التلفازي الستلايت ويقوم بإخفاء الهاتف والسجائر في مكان متروك يقع أمام شرفة غرفتي لذلك كنت أسرع أنا أيضاً وأبلغ من في المنزل كي يتم إخفاء الهواتف والشريحة. أما في الليل فقد كنا نتناوب أنا وزوجي ينام أحدنا ويبقى الآخر صاحياً إذا ما حصلت أي عملية دهم أو تفتيش مفاجئ للمنزل.

في أحد الأيام في تمام الساعة الثانية إلا ربعاً صباحاً كنا جالسين أنا وحماتي وزوجي فإذا بي أسمع خبر إعلان انطلاق ساعة الصفر لتحرير المدينة كانت الفرحة لا توصف اتصلت بأهلي لم أستطِع الانتظار وأكدوا لي صحة الخبر. كنا نظن أن التحرير أيام وينتهي كل شيء لكنه اتضح غير

ذلك فالدفاعات التي أقامها التنظيم كبيرة وتحصيناتهم قوية جداً. تم إعطاء التعليمات من القوات الأمنية للمواطنين منها عدم الخروج من المنزل ليلاً سيراً أو في السيارات والتنقل بين الأحياء لأجل تجنب الضربات الصاروخية واستهداف النقاط الخاصة بالتنظيم. كما أن الطيران قام بمنع العبور من على الجسور لأنها سوف تستهدف وستقطع لتفصل الجانب الأيمن عن الأيسر لأجل منع وصول الإمدادات والأسلحة وعناصر التنظيم فكانت الخطة الحربية التي وضعت أن يحرر كل جانب على حدة.

تم حفر الخنادق حول المدينة عند المداخل وتم تعبئتها بالنفط الخام وأيضاً تم جمع إطارات السيارة بإعداد هائلة لم نكن نعلم ما الغرض منها بالضبط ولكن بعد ذلك كنا نراهم يحرقون الإطارات كي يقوموا بعملية تضليل أمام الطائرات المسيرة التي ترصد أماكن تجمعهم أو دور الضيافة أو المضيف كما كانوا يقولون عنه أو أي مكان يعملون فيه ويصنعون السلاح. وقاموا أيضاً بدفن السيارات المفخخة تحت التراب عند السواتر التي تفصل بين التنظيم والجيش.

نهضنا في صباح أحد الأيام على أصوات أناس وضوضاء كبيرة كانت العوائل قد تركت منازلها بعد أن أمرهم التنظيم بإخلائها ليلاً كانت تلك المنازل التي تكون في بداية كل حي ومنطقة ويقومون بالتمركز فيه وحفر خنادق تحت تلك المنازل وعمل ثغرات بين المنازل لكي تكون متصلة ببعضها كي

يعبروا من منزل لآخر وكانت الثغرات تقام بين المنزل الذي يقع خلف المنزل الذي هم فيه والذي يليه أيضاً. كي يتنقلوا بين الأحياء والمناطق بسهولة دون أن تكشفهم الطائرات. بدأت الطائرات تجوب سماء المدينة في كل وقت وحين بدأت بتنفيذ ضربات شرسة للجسور وقطع الطريق بين الجانبين تماماً إلا ممرات صغيرة في الجسور يستخدمها الناس للتسوق سيراً على الأقدام والتنقل بين الجانبين.

اتصلت بابنة عمي أول مرة وقالت لي أن أختها الصغرى بسمة قد عبرت من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر وهي تعيش قريبة مني ولا مال لديها أو طعام قلت لها دعيها تأتي إليّ وأعطيتها العنوان وبالفعل جاءت بسمة وكان اللقاء بيننا حزيناً جداً هي مريضة ووحيدة وأنا مثلها الآن أعطيتها مبلغاً بسيطاً كي تشتري منه بعض الطحين والطعام وكان زوجها قد ترك كل شيء على عاتقها ويخاف الخروج قالت لي أنها سوف تهرب قريباً حين تصل القوات الأمنية إلى منطقة معينة قريبة من المنطقة التي أسكن فيها عن طريق التلال التي تفصل الأحياء عن بعضها وطلبت منها أن تبلغني في حال سمعت شيء أو وقت معين للهروب.

بدأ طيران التحالف والقوات الأمنية بضرب المضافات التي يستخدمها التنظيم ونبهت الأهالي إلى وجوب ترك المنزل الملاصق لأي مضافة وهذا ما جعل التنظيم يمنع خروجهم كي يتجنب الطيران ضربهم بسبب وجود

المدنيين كما قصفت الطائرات مداخل الأحياء والأفرع أيضاً كي يمنع خروج السيارات المفخخة وإذا ما خرجت سيكون بالإمكان استهدافها أسرع لوجود الحفر الكبيرة التي تسبب بها الصاروخ. لذلك قام التنظيم بوضع السيارات المفخخة داخل المحلات مسبقاً كي تكون قريبة من الشارع الرئيسي في كل المناطق.

عند سمعانا بقرب استهداف الجسور قررنا أنا وزوجي أن نخرج ونعبر إلى الجانب الآخر من المدينة كي نتسوق ونقضي بعض الوقت وكان مثل وداع للجانب الآخر وإلقاء نظرة أخيرة له وبينما كنا نهم بالخروج فإذا بالحي مكتظ بالمقاتلين صغاراً وكباراً بأسلحتهم الخفيفة كانوا قد تمركزوا جميعهم في المنزل أو المضافة التي في الحي لأجل مراقبة الأحداث ومعرفة ما يجري ويكونون قريبين من الأهالي وبهذا يكون الحي الذي نسكن فيه تحت أنظار ورصد الطائرات التي تتبع أماكن سكناهم وتواجدهم ومما أثار حزني أكثر من قلقي وجعلني أبكي هو منظر طفل كان يسير خلف المقاتلين وعناصر التنظيم كان يبلغ من العمر حوالي ثلاثة عشر عاماً وأقل هزيل الجسم يسير ببطء حاملاً سلاحاً على ظهره يكاد يلامس الأرض؛ عيناه في الأرض لا ينظر إلى أي مكان سوى خطوات أقدامه التي كأنه كان يوجه لها ألف سؤال ويقول لها أين المفر؟ ولماذا أنا هنا؟ وماذا سأفعل بين كل هؤلاء الرجال المدججين بالسلاح والملتفين بالأحزمة الناسفة أخذت

من ملامح وجهه حزناً عكس كل ما في داخله وسط قلبي سرت وهو سار ووصل المضافة استدرت ونظرت إليه ولا زالت عيناه في الأرض، ترى من كان السبب بأن يكون هنا؟

بدأنا السير أنا ومصطفى لا نعلم لمَ خرجنا سوى أننا مللنا الوضع والانتظار هناك. رأيت كانت الحفريات في كل مكان في شوارع المدينة كانوا يقولون أنّهم يصلحون المجاري وكنا نصدق كان عملهم متواصلاً ليل نهار دون كلل اتضح فيما بعد أنها الأنفاق التي تحدثت عنها سابقاً. وكان هناك ازدياد في ظاهرة معاهد تعليم اللغات نسيت أن أذكرها لكم.. كانت المعاهد لكل اللغات تقريباً بسبب تواجد العناصر المهاجرين في المدينة لأجل التهيئة للمعركة الكبرى.

بينما كنا نسير ونكمل الطريق كنت أرى الناس التي تسير وهي متعبة ومرهقة من شدة الجوع وكان ذلك يقتل كل ما تبقى من أمل من داخلي كنا نساعد بقدر ما كنا نستطيع بفضل الله لكن هناك الكثير من الجياع في مدينتي. وعلى الجسر العتيق وقفنا عند بدايته قبل العبور وإذا كانت قوافل من الناس تعبر وتحمل أغراضها بواسطة عربات من الخشب والحديد بسبب عدم توفر أجرة النقل والبعض ينقل أغراضه بواسطة سيارات الحمل كان الناس ينتقلون من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر وذلك هرباً من اقتراب العمليات وخوفاً من القصف الصاروخي أو لأجل أن يكون لهم

حظ أسرع بعمليات التحرير التي قيل أنها ستبدأ أولاً في الجانب الأيسر وثم الأيمن.

ومع كثرة التنقل والحركة عرف التنظيم بهروب الأهالي وعدم وجود نية للناس بمساعدتهم لأجل البقاء هنا في المدينة لذلك قام بمنع التنقل ونقل الأشياء بين الجانبين وكل من ينتقل يعتبر مذنباً ويحاكم.

وصلنا الفرع الذي فيه الجامع الكبير في منطقة القطانين كنا نقف وأذن العصر وقفت عند باب الجامع ودخل مصطفى ليصلي وبينما بدأ يتوضأ بدأت طائرات تقترب كثيراً فوق الجامع كنا نعلم أنها سوف تطلق الصواريخ خرج مصطفى مسرعاً أمسك بيدي وركضنا سريعاً وابتعدنا وبعد ثلاث دقائق اهتزت لأرض بصواريخ متتالية قصفت المبنى القريب من الجامع وهدمت البنايات القريبة منه وكثير من الناس المارة وأصحاب المحلات والمصلين أصيبوا لكننا نجونا بأعجوبة كبيرة.

بدأت القوات تصل أطراف المدينة من كل الاتجاهات وما أن دخلت أحد الأحياء بدأت بشائر الخير تهل علينا لكن لم نكن نعلم أن التحرير سوف يحصد أرواح كثر كانت تنتظر الحرية بفارغ الصبر. كانت القوات تسير بخطى حذرة مثل الطوق الذي يضيق شيئاً فشيئاً. كانت الأقضية خالية من عناصر التنظيم في كل الاتجاهات ونواحي المدينة لأن التركيز

والتجهيز أصبح مركزاً أكثر في داخل المدينة لذلك دخلت القوات بكل صنوفها وجنودها الذين هم من مختلف قومياتها وبسطوا سيطرتهم بسرعة أكبر.

في أحد الأحياء في الجانب الأيسر حي شعبي دخلت القوات الأمنية وتصادمت مع التنظيم هناك حصلت معركة عنيفة استخدم التنظيم فيها السيارات المفخخة وقام بتفجير إحدى تلك السيارات في أحد الأحياء داخل فرع ضيق مما أدى إلى انهيار أحد عشر منزلاً على من فيهم وكانت تلك مجزرة كبرى لم يخرج من تلك المنازل أحد أبداً. وبعد أن زال غبار تلك المجزرة حاصر الجيش تلك المنطقة وعناصر التنظيم اتخذت من منازل العوائل ملاذاً لها وقامت بأسر العوائل وجعلتهم درعاً يحتمون به لأجل ضمان عدم استهدافهم أو الاستسلام للجيش وكان القناصة من عناصر التنظيم يختبئون في أسطح المنازل بطريقة غريبة جداً لم يكتشفها أحد لوقت طويل.

بقي الوضع هكذا لأيام وكانت المواجهات تجري بين الطرفين بين الحين والآخر ويسقط عدد من الشهداء من المدنيين العزل وكان هناك طبيب في الحي كان قد اخفى هويته كان يقوم بنقل عناصر الجيش عن طريق المنازل ويقوم بمعالجتهم كان منزلهم ملاصقاً لمنزل أقربائنا لا بل الجدار الذي بينهم وبين منزل الطبيب كان التنظيم قد أزاله مثلما فعل في كل المنازل كان

هناك قناص يرصد تحركه دون علم الطبيب أو من هم حوله كان يحاول قتله ونجح في وضع رصاصة في رأسه أنهت آخر لحظات حياته التي كان ينقذ الناس فيها كانت أكبر مأساة لأهل الحي لأنه رجل طيب وطبيب ناجح ومخلص لم يخف الموت.

بعد ساعات طوقت القوات الأمنية المنطقة وقتلت القناصين بعد أن كشف أمرهم عن طريق أحد أبناء الحي الذي قتل فيه الطبيب عمر. كان القناص داخل خزان مياه فارغ يرتدي حفاظاً كي يبقى داخل الخزان ولا يخرج ويضع المغذي كي لا يموت جوعاً ويبقى صامداً لأطول مدة ممكنة. وفي منطقة أخرى دخلت القوات الأمنية إليها بدون قتال لأنها كانت خالية من عناصر التنظيم وفي منطقة أخرى على ذات الامتداد دخل التنظيم منطقة كانت خطيرة جداً لكثرة عناصر التنظيم الساكنين فيها كانت المواجهة مستحيلة استخدم التنظيم كل الأساليب وكل عناصره المفخخين لإيقاف تقدم القوات الأمنية نساء ورجالاً. كانت المواجهة طويلة استمرت لأيام وأسابيع أدت إلى تأخر خطط التقدم للقوات الأمنية كثيراً.

وفي ظل هذا التأخير أناس كثر من أهالي الحي لم يستطيعوا انتظار التحرير الذي طال وبات الجميع يرى القوات الأمنية من على أسطح المنازل لذلك قاموا بمحاولات للهرب من خلال التسلل ليلاً من الأفرع القريبة التي تصل إلى المقبرة ويسيرون ببطء وحذر متناسين الألغام التي زرعها التنظيم

لكن لابد أن يكون للحرية ثمن إما النجاة أو الموت. كثير من العوائل انفجرت عليهم الألغام. وكثير أيضاً قام التنظيم بقتلهم أثناء الهرب.. من هرب استطاع أن يساعد القوات الأمنية بإعطاء إحداثيات لأماكن المفخخات ومنصات الهاون والصواريخ.

كانت الأخبار تتوالى من الجانبين وكان التنظيم في حالة هلع وكل من يشك في تصرفاته أو مساعدته للقوات الأمنية يقتل على الفور. وخبر في الأيمن يليه آخر في الأيسر أكثر حزناً كأنهما توأمين يحزن أحدهما على ما وقع للآخر.

حادث لازال وقعه كبيراً على مسامعنا حصل في منطقة باب الجديد التي تقع في الجانب الأيمن هناك كان الأهالي قد تزود بما يستطيعون عليه من مواد غذائية وماء ونفط لأجل تجهيز الطعام وليس التدفئة فقد تركنا استخدام وسائل التدفئة وذلك لقلة النفط ولخطورة المدافئ حين يحصل انفجار بأي مكان قريب.

وكان في بعض المنازل يوجد بهوٌ يستخدم لتخزين الأغراض كان الناس قد جهزوا البهو ونظفوه وكانوا ينامون فيه خوفاً من القصف الصاروخي من طيران الجيش والتحالف ومن انفجار المفخخات وقذائف الهاون التي باتت مثل الأمطار تنزل في غير موعد وفي أي وقت كان لتحصد أرواح من

الصغار والكبار بدون سبب فقط لأنهم كانوا يقفون تحت مرماها أو أنها مرت من فوق منازلهم لتسقط عليهم. في منزل أبي محمد كان البهو عنده كبيراً جداً ومنزله آمن لذلك قام الكثير من أهالي الحي والجيران بالدخول في البهو عنده حين سمعت أصوات الطائرات وهو لم يمانع أبداً الكل كان متكاتفاً رغم قلة الطعام والشراب اكتظ البهو عنده بالناس وجلس الكل فيه يترقب ويدعو الله أن يبعد أنظار الطائرات عنهم. في تلك الأثناء كان صهريج مفخخ يمر من الحي ورصدته الطائرات ومع نزول أول صاروخ في الحي ساد الصمت كان قريباً جداً مما أثار رعب المتواجدين ومع نزول الصاروخ الثاني والثالث على ذاك الصهريج وتناسي الطائرات ومن يقودها لاحتمالية وجود بشر قرب ذاك الصهريج للأسف حصل انفجار هائل لم يبقَ بعد الصوت المريب ولهب النيران سوى ريح قوية وغبار دار في المكان ومع انجلاء الغبار ووضوح الرؤية كان منزل أبا محمد وكل من في البهو أصبحوا ماضياً تحت الركام. كان الصهريج يقف أمام تلك الدار التي تحشد فيه كل من في الحي خوفاً من الموت لكنه تسابق معهم ووقف عند عتبة الدار.

كان التنظيم يطلق قذائف الهاون من على أسطح المنازل ويضع منصات الصواريخ داخل الأحياء السكنية شعور يجعل كل ما في داخلي يرتجف حين أتذكر صوت سقوط قذيفة الهاون أو انطلاقها من مكان قريب. صوت الموت المرعب يطير عالياً من فوق رؤوسنا وفي كل يوم نسمع استشهاد أحدهم

بسب سقوط القذيفة على منزله أو وهو يسر في الشارع أو إطلاقة رصاصة من قناص لا يعرف الرحمة كأنه عقاب لأبناء المدينة لأنهم رفضوا خوض القتال معهم.

صحوت في أحد الأيام على صوت صراخ ابنتي التي أصابها الذعر وهي خارجة من الغرفة ذاهبة عند جدتها عندما سقطت قذيفة هاوون في منزل جارنا لكن الحمد لله لم تقع أية إصابات وفي وقت آخر سمعنا صوت سقوط قذيفة الهاون تبعها صوت صراخ كانت القذيفة قد سقطت على طفلة لا يتجاوز عمرها الست سنوات. حزن وموت في كل الحي في كل ساعة وفي كل وقت أصبح خروج الناس من المنزل مرعباً خوفاً من الموت. أصبح الجلوس وسط المنزل أو في حديقة المنزل مرعباً أكثر والجلوس في الغرف يرعب أشد وأكثر خوفاً من سقوط الجدران.. الموت محيط بنا بطريقة بشعة.

بث التنظيم شائعة كبيرة أنهم سوف يأخذون كل الرجال والنساء للقتال وبالفعل لم تكن شائعة أبداً لذلك قرر الرجال في المدينة إذا أُجبروا على ذلك فسيقومون بقتل بناتهم ونسائهم. كان ينتابهم شعور فظيع لا يوصف أن تكون مجبراً على قتل نساء بيتك خوفاً من انتهاك الحرمات.

في إحدى المناطق دخلت القوات الأمنية ليلاً كانت المعلومات التي وصلتهم تفيد بأن التنظيم انسحب منها ومع دخولهم لوسط المنطقة حدث شيء غير

متوقع انفجرت الكثير من الألغام لأن التنظيم قام بتفخيخ الشوارع والعناصر المرتدين للحزام الناسف أخذوا يقفزون من على أسطح المنازل وينفجرون على القوات الأمنية. كان كميناً كبيراً ورغم ذلك استطاعت القوات الأمنية السيطرة على نصف المنطقة تماماً.

حين اقتربت القوات الأمنية ووصلت إلى وسط المنطقة قام التنظيم بجمع كل من في الحي الأخير الذي لازال تحت سيطرتهم ووقفوا في وسطهم وساروا معهم وهددوا من يمتنع من السير بالقتل جعلوهم دروعاً بشرية وساروا معهم إلى وسط المدينة باتجاه منطقة الصناعة هناك ليلاً أدخلوهم في أحد المصانع وأقفلوا البوابات كي يكملوا السير صباحاً. كان أحد الرجال المحتجزين من الفضوليين خرج متسللاً من المصنع ليرى أين ذهب العناصر وهل هناك طريق للهرب وقال حسب روايته أنه رأى طائرة هليكوبتر تقترب من الأرض ونزل منها شخص وتحدثوا مع أحد المسؤولين في التنظيم ثم غادرت الطائرة وقال أنّه حين شاهد ذلك أسرع وعاد إلى المصنع ورفض الهرب وجلس بهدوء لأن كل شيء بات واضحاً.

وفي ذلك الحي اكتشف التنظيم من خلال معلومة مسربة من أحد عناصره المختبئين أن عائلة واحدة لا زالت هناك في الحي فأبلغوه من بقي من التنظيم بالمعلومة وبالفعل قاموا بمحاولة مداهمة للمنزل لكن العائلة كانت تجلس بصمت وأغلقت الأبواب عن طريق وضع سيارة خلف باب

الدار فقام عناصر التنظيم بضرب الباب بواسطة دراجة نارية يقوده عنصر من التنظيم ويجعلها ترتطم بالباب بقوة وبقي هكذا ثم هدأ الوضع وبعد ساعة واحدة دخلت القوات الأمنية وحررتهم.

كانت القوات الأمنية هدفها الوصول إلى حافة النهر وذلك عن طريق بسط سيطرتها على مزيد من المناطق والأحياء. وصلت القوات الأمنية بعد خوض المعارك إلى منطقة تقع أمام التل الأثري عند منطقة باب الشمس القريب من منطقة النبي يونس حيث جامع النبي يونس والسوق الذي يحمل نفس الاسم. هنا كان التل حلمَ كلّ من يقبع تحت سيطرة التنظيم.

أتذكر جدتي التي كنت أتحدث معها والتي هي أغلى ما أملك حين كانت تدعو لي وتقول أسأل الله أن يفتح لك طريقاً تخرجين منه بسلام وتصلين إلى أحضاني. كان هذا الطريق حلم يراودني لكنه مستحيل والموت يحيط بنا وحولنا لكن كلي ثقة بأن الله لازال معنا دائماً وأبداً وليس علينا سوى الصبر لا غير.

اتصلت بوالدتي صباحاً أخبرتني أن حيّنا القديم ومن فيه قد تحرر وكانت تسكن هناك ابنة عمي وأختي أم رحمة اتصلت بها وقلت لها سمعت بأنكم تحررتم قالت نعم البارحة ليلاً كنت أقف وسط المنزل ورأيت خوذة عسكرية التي يضعها الجنود لم أتردد وذهبت للسطح فإذا بالجيش والقوات

الأمنية تطلب مني أن أفسح المجال لهم بالنزول من خلال منزلي وأدلهم عن أماكن تواجد العناصر أن وجدوا وبالفعل دخل الجنود إلى الحي من خلال المنزل والإمدادات وصلت من الحي الذي خلفنا وطيران كثيف قال أن الفرحة لا توصف وطلبت مني أن أذهب عندها حين نتحرر كان عمي أيضاً قد تحرر هو وعائلته إلا ابنته التي علقت هي وزوجها وأهله في الجانب الأيمن وكان الطعام والماء قد بدأ ينفد عندهم. اتصلت به قال إذا تحررتم فمنزلي مفتوح لكم جميعاً كان الناس الذين تحرروا في البداية قد فتحوا منازلهم لكل من يتحرر كانت الإنسانية والرحمة كبيرة بيننا بسبب ما حصل لنا من مآسٍ. ابنة عمي الأخرى بسمة كنت أنتظر خبر منها كي نهرب سوياً لكنها لم تستطع التواصل معي وتحررت الحمد لله فقد سلكوا طريقاً عبر البساتين باتجاه المناطق المحررة. أصبح الفاصل بيننا وبين الحرية هو تلال في وسط المدينة. بدأ عناصر التنظيم بالانحسار وتزايد أعدادهم داخل الأحياء السكنية.

كان في مضيف حينا رجل يبلغ الستين من عمره من عناصر التنظيم كان ذات تركيبة غريبة جداً كانت إحدى عينيه قد فقد البصر بها ويغطيها بقطة سوداء ويد واحدة والأخرى قد بترت وساق واحدة والساق الأخرى بترت أيضاً ووضع بدلاً عنها ساقاً لا أعلم من حديد أو ماذا ويسير بواسطة عكاز ويرتدي حزاماً ناسفاً ويحمل سلاح على ظهره يسير ببطء محدثاً صوتاً

وجلبة بقدمه التي في أسفلها الحديد من صوت عكازه نعلم بقدومه ووصوله الحي كان ذا شأن ومكانة يخافه كل الجند وكل من في الحي يرتعب منه كان يخرج ليلاً ويقترب من الأبواب لكي يتأكد إذا ما كان هناك هاتفاً أو راديو يعمل. كان يتنصت لساعات دون كلل وكنا ننتبه كان الأطفال يخيفون بعضهم بالقول (اگعد لا يجيك أبو عكازة) يهددون بعضهم به.. ذات مرة دخل الحي نهاراً على غير عادته وكانت نسوة في الحي يجتمعن عند دار الحاجة أم أحمد كي يصنعن الخبز ويتبادلن نقل الأخبار حين دخل كانت إحدى النساء بلا خمار ولا كف يستر يديها فدخلت كل النسوة في دار الحاجة أم أحمد وأغلقوا الباب وبقت المسكينة خارج المنزل وتطرق الباب ولم يفتحن لها خوفاً أن يكون وراءها وبقيت في مواجهته. اقترب منها قال لها أين التي كانت بلا غطاء قالت لا أعلم لم أرَها وسألها لماذا لا ترتدين الخمار؟ أجابته إنها في الثمانين من عمرها من سينظر إليها فطلب أن تجلد في الحال بدلاً عن التي تسترت عليها وبعد أن اجتمع حوله رجال من الحي وطلبوا منه أن يتركها لكبر سنها واحتراماً لعمرها نجت أم أحمد من العقاب.

الجانب الأيمن أيضاً القوات لا زالت تتقدم ببطء بسبب اتخاذ التنظيم من المدنيين دروعاً بشرية لكن التقدم موجود والناس تحاول الهرب ولا ترضى بالانتظار كان الناس إما أن يموتوا من خلال الانتظار بسبب قلة الطعام والشراب أو بسبب القصف أو بسبب جعلهم دروعاً بشرية من قبل عناصر

التنظيم لذلك فضل الكثير الهرب مادام الموت هو السبيل الوحيد بكل الحالات فلتكن آخر محاولاتهم للتمسك بالحياة هي ربما أمل النجاة الأخير ولا يهم إذا كان الموت حليفهم فهم بالأصل قد ماتوا ألف مرة خوفاً ورعباً وجوعاً والأصعب من كل هذا حين يشاهدون أطفالهم وهم يخرجون أنفاسهم الأخيرة جوعاً وثم تغادر أرواحهم تلك الأجساد النحيلة التي لم تعد تقوى على المقاومة أكثر.

طلب مني زوجي الخروج لسبب أجهله ذات يوم ربما هو الحنين أو الضجر أو لا أعلم وكانت المدينة في حالة صمت ورعب وقلة ممن يخرجون وخاصة النساء وافقت وارتديت ملابسي وخرجت معه وسرنا باتجاه الجسر القديم عبر منطقة الفيصلية التي تقع على النهر مباشرة كان الناس يجلبون الماء من النهر عبر نقله بكافة الوسائل وأيضاً عبر تحميله في عربات خشبية أو حديدية لأن السيارات لم تعد تسير في الشوارع نهائياً كما أن الناس بدؤوا يعتمدون على قطع الأشجار لأجل توفير وسائل التدفئة وتجهيز الطعام والخبز أيضاً فكان الشباب يذهبون صباحاً إلى منطقة الغابات ويقومون بقطع الشجر وبعد تكسيره يتقاسمونه فيما بينهم. رأيت عربات محملة بالخشب وأخرى محملة بالمياه وعربات أخرى محملة بالأغطية والفرش وأثاث المنزل كانت لعوائل فارة من منازلها التي سقطت ورأيت آخرين

يقفون عند باب الجامع يصلون على شاب وأب لسبعة أطفال انفجرت عليه (الجولة) التي كنا نصنع عليها الطعام وتعمل بواسطة مادة النفط (الكاز).

وفي مكان آخر سلك زوجي على شخص من المنطقة وأخذ يواسيه بوفاة زوجته أيضاً بسبب انفجار تلك المدفأة أو (الجولة). وفي الشارع كان هناك عناصر من التنظيم المحليين أغلبهم من المحليين والعرب فقط. وحين اقتربنا من الجسر هناك كانت كأنها ساعة الحشر كان عناصر التنظيم الأجانب والأوربيين والآسيويين والعرب ينقلون أشياءهم بواسطة العربات إلى الجانب الأيمن عبر ممر صغير يصل بالجسر لأن الصواريخ كانت قد أصابت المجسر الذي يقع قبل الجسر وأيضاً أثارت الصواريخ حفرة كبيرة أمام الجسر لمنع عبور السيارات. كانت عملية فرار جماعي منهم نظرنا إليهم وواصلنا المشي لأنهم يكرهون كثرة التمعن فيهم.

وصلنا إلى الجسر حين التفت يساراً كي أنظر إلى الماء شاهدت منظراً لن أنساه طيلة عمري كان على جسر آخر من جسور مدينتي حاولت المشي لم أقدر توقفت ونظرت ها أنا أعود بالزمن إلى هناك كأني أمام ما رأيت أقف من جديد كانت جثث لثلاثة رجال معلقين من أقدامهم وبسبب البرد كانت الجثث قد أصبحت متصلبة وامتدت الأيدي إلى الأمام كان منظرهم غريباً مرعباً مخيفاً نذيراً للمدينة أن الخطر لا يزال في طريقه إلى كل مكان فيها. منظر قاسٍ جداً أخذ حيزاً من ذاكرتي لشدة بشاعته.

سألت زوجي وأنل أذرف الدموع على ما رأيت لماذا لا يتم قطع الحبل كي يعلموا أن ما فعلوه حرام وأن الناس لا توافق على نهجهم وسياستهم؟ أخبرني أن هناك محاولات بالفعل لكنها فشلت بسبب وجود قناصة أمام الجسر على أحد البنايات كي يمنع أي عملية لتحرير الجثث إكراماً لهم.

أزاح زوجي نظري الذي تركز باتجاه الجسر وأمسك بيدي وأكملنا الطريق وأخبرني أن هناك جند ينظرون إلينا وبينما وصلنا الجانب الأيمن كنا نسير بصورة طبيعية اقتربت طائرات من المكان كان الصوت مريعاً فإذا بعناصر التنظيم المسلحين يسيرون حولنا كأننا نسير وهم حمايات شخصية وأصبحوا حولنا من كل الاتجاهات انتبهت لتصرفاتهم ازداد عددهم حولنا وحول كل النساء والرجال المدنيين كانت هذه حركة لحماية أنفسهم لأن الطائرات لن تستهدفهم بسبب تواجدنا نحن المدنيون سرنا بخطى ثابتة إلى أن وصلنا لأحد الأفرع أمسك زوجي بيدي بقوة ودخلنا الفرع حتى ابتعدوا وعدنا أدراجنا ولم نكمل لأن الطائرات بالفعل بدأت باستهداف مناطق متفرقة.

كان التنظيم قبل أن يخرج من أي منطقة أو عند خسارته لأي حي أو منطقة يقوم بإحراق كل البنايات العامة والخاصة أيضاً. كانت أنباء كثيرة تأتي عن فرار عوائل من منطقتنا لكن أكاد لا أصدق أحياناً وأحياناً أخرى أصاب بحالة غضب كبيرة وأطلب أن أعرف كيف يتم الهرب.

انقسامات وشجارات كبيرة حصلت بين عناصر التنظيم بسبب غياب القيادات ورحيل أغلبهم وبسبب ترك أغلب الجند بدون دعم مادي أو معنوي كانت كل منطقة فيها عدد من العناصر يديرون شؤونهم بأنفسهم هكذا كان يقال وبالفعل شاهدنا أعدادهم بدأت بالتناقص شيئاً فشيئاً.

جارتنا أم رغد كان والدها وأمها وأبيها قد حاولوا الهرب وانتظرت مكالمة منهم لأيام لكنهم لم يتصلوا تبين بعد ذلك أنهم عند هروبهم من على التل قد انفجر عليهم لغم أرضيّ ولم ينجُ منهم أحد والكل عرف بالخبر لأن عدداً من الهاربين الذين نجوا شاهدوهم وهم يلقون حتفهم لكن لم يخبرها أحد أبداً ولم يتجرأ أحد حتى على أن يتكلم لها بأي شيء بخصوص موتهم.

وصلت القوات الأمنية إلى منطقة تقع عند جسر يسمى بجسر الخوصر يمتد على طول المدينة بمحاذاة نهر دجلة كانت المعارك مشتدة هناك بسبب المنازل القريبة التي يسكنها المدنيين ولكن كانت هناك فرصة كبيرة لعوائل هربت ليلاً باتجاه القوات الأمنية وتحررت بسرعة.

في إحدى المناطق الواقعة على جسر الخوصر الممتد وبعد عبور نهر الخوصر هذا هناك قرية صغيرة أهلها من الذين يعتاشون على تربية الحيوانات وصناعة الألبان والأجبان كانت هناك محاولة لبعض العوائل للهرب ليلاً عن طريق العبور إلى تلك القرية وصولاً إلى القوات الأمنية وبالفعل نجح

الكثير منهم ولكن بعض المندسين بين العوائل والذين لم ينكشف أمرهم وولاؤهم للتنظيم أبلغوا التنظيم بما يجري وبالفعل في أحد الأيام نصبوا كميناً لعدد من العوائل وقاموا بقتلهم على الفور.

في صباح أحد الأيام ذهب مصطفى ليجلب لنا الماء وعاد وهو يبكي بشدة سألته ماذا حصل قال لي أنه شاهد سيارة كيا يقودها عناصر من التنظيم يحملون فيها جنوداً من القوات الأمنية وهم معلقون ومقيدون فيها؛ البعض منهم قد استشهد والآخر ينزف ولا زالت الروح تصارع لأجل البقاء ويدورون حول المدينة كي يثيروا الرعب في نفوس الشباب الذين كانوا يتجهزون لأجل المقاومة ضدهم حالما يأتيهم الأمر. وقاموا بتعليق بعض الشباب أيضاً عند تقاطع أحد الشوارع على أعمدة الكهرباء هذا كله كان يساهم في قتل الأمل لدى الأهالي. كانت الأيام تمر والوضع يتأزم أكثر فأكثر.. الحلقة تضيق.. علينا تحرير الأحياء السكنية ولازلنا متأخرين ولم يصلنا أحد بعد. لم نكن نخرج ونسير مثل قبل ولكن طلبت من زوجي أن نخرج بعد صلاة الظهر ونسير قليلاً.

سمعنا أن القوات الأمنية قد وصلت عند مجسر المثنى الذي لم يكتمل بناؤه بعد وكنا ننتظر بشغف التحرير خرجنا كان الشارع لا أحد فيه سوى بعض عناصر التنظيم عبرت الشارع أنا وزوجي فإذا بسيارة تقترب وتسير باتجاه المجسر كانت السيارة مصفحة بالكامل أي أنها مغلقة من كل مكان

بحديد صلب ولا يوجد فيها لا باب ولا منفذ للخروج ولا حتى زجاج كانت عبارة عن قطعة من الحديد تسير بعجلات في الشارع وبهدوء تام لم يكن فيه سوى فتحة صغيرة لمن يقودها أمامه مباشرة حتى من يقودها لا مجال أمامه للهرب منها إذا ما أراد الهرب. وقفت وبدأت أنظر إليها أنا ومصطفى كأننا ننظر إلى آلة لحصد الأرواح تسير أمامنا ولا أحد يستطيع ردعها أو منعها بقينا ننظر إليها إلى أن غابت عن الأنظار وبعدها بدقيقة صوت انفجار مع لهيب نيران متصاعدة في السماء كانت قد وصلت الهدف وحصدت أرواح كثر مثل كل مرة. لم نكمل الطريق وعدنا أدراجنا كل ما في الشارع يقتل الرغبة في داخلنا لأجل المضي قدماً.

في اليوم التالي كانت إحدى العوائل التي في الحي خرجت منذ يومين وتحررت وقد اتصلوا بمن في الحي وأخبروهم كيف هربوا كان هناك التل الأثري الذي تحدثت عنه كان الناس يقومون ليلاً بإعطاء أولادهم دواء منوماً كي لا يحدثوا صوتاً أثناء الهرب ويسيرون لمدة ساعة تقريباً أو أقل وبهدوء كي لا يحس عناصر التنظيم بتحركاتهم وبالفعل نجح البعض بالهروب وآخرون سقطوا بين يدي التنظيم وأما آخرون فما حصل لهم لم يحدث لأحد من قبل كانت الحرية هي الهدف ولكن لم يحسبوا أي حساب لما سوف يحصل للطريق مسبقاً.. الحرية ثمنها غالٍ جداً. كان في الحي الشاب الذي ذكرته غريب الأطوار الملقب "بالكبير" كان في تلك الأيام يقصد

الوادي القريب من الحي أحياناً وأحياناً أخرى يقف عند التل الذي يقصدهما الناس للهرب وكان يقتل كل من يحاول الهرب ولكن في أحد الأيام قام عدد من الشباب بتقييده وضربه ورميه في الوادي واستطاعوا التخلص منه بعد أن تأكدوا أنه قد انضم للتنظيم ويعمل في الاستخبارات عندهم ومتخفٍ منذ دخولهم وقيل أيضاً أنهم استغلوا جنونه وجعلوه يبايع ويصبح معهم.

الوضع بدأ يتدهور أكثر الناس لم تعد تتمكن أو تستطع الحصول على وسائل التدفئة أو صنع الطعام وجلب أغصان الخشب من الغابات لذلك اتجه الأهالي إلى تكسير الأثاث لاستخدام الخشب لأجل إيقاد النار ومن نفدت لديه قطع الأثاث اتجه إلى حرق الملابس وحتى حرق الأحذية وكل ما يمكن حرقه لأجل صنع الخبز لسد الجوع الذي نهش أجساد أطفالهم.

في هذا الوقت انعدمت مصادر التمويل بشكل نهائي لإفراده وعناصره مما أدى إلى حصول انقسامات داخلية بينهم وأدى إلى القتال فيما بينهم وقتل بعضهم البعض لأجل الأموال والطعام الذي كان قد نفد لديهم أيضاً. كانت المعلومات ينقلها عناصر من استخبارات وأمن الجيش المتخفين بين التنظيم منذ فترة طويلة والذين لم يكشف أمرهم أبداً والذين كان قد كشف أمرهم للأسف كانوا يعدمون ويصورون لحظة ذبحهم ويبثونها في قنواتهم الخاصة على شبكات التواصل التي هي الأخرى بدأت في الاختفاء مع

بداية عمليات التحرير بعد أن قامت إدارة مواقع التواصل بحجب المواقع الخاصة بهم مع بقاء التساؤلات لماذا أصلاً منذ البداية سمحوا لهم بالبث وإنشاء حسابات خاصة بهم أمام العالم وبث فيها كل عملياتهم بدون استثناء الإجابة واضحة لدى البعض طبعاً ويبقى الصمت أفضل.

أيام طويلة لا بل سنين مضت وأنا أفكر في اللحظة التي سأكتب فيها اللحظة التي قررت فيها أن أهرب نحو الحرية نحو الأمل نحو شعاع الشمس الذي كان يقف خلف الستار خوفاً مرسلاً خيوطاً من شعاعه كي يجعلنا نكمل وأزيح ذاك الستار وأسألها.. أما آن موعد شروق جديد؟ لن أنتظر أكثر بعد فقد فاض صبري ها أنا أكتبها وأعيش ذات الإحساس ولم أبدأ بعد.

مع آخر أذان للصلاة وأنا في ظل حكم التنظيم الآن انتبهت أنه كان آخر أذان أسمعه في زمنهم. كنت واقفة في مطبخي الصغير أعد وجبة الغداء وإذا بقذيفة هاوون تعبر من فوق مطبخي أثارت رعبي صرخت توقفت للحظات وعدت لإكمال طبخي ولم أهتمم كنا قد تعودنا على ذلك ولم نعد نابه؛ نخاف قيلاً ثم نعود كما كنا.

سمعت أصواتاً عند الباب زوجي وصديقه أحمد.. دخل زوجي مسرعاً قال تعالي واسمعي هذا ماذا يقول أنه وأهله سوف يهربون، وقفت لبرهة لم

استوعب ما يقال فخرجت بنفسي وناداني بصوت عالٍ وقال: إن المنطقة خالية من التنظيم الكل هرب لم يبقَ منهم أحد. الشوارع مكتظة بالعوائل كلها تتجه نحو القوات الأمنية وأنا سوف آخذ عائلتي وأهرب أيضاً لماذا لا تأتون ماذا تنتظرون؟ كانت لحظة غريبة طرأت على مسامعي كلمات غريبة: الهرب! الحرية! وعناصر التنظيم غير متواجدين..

كأني أدور في فلك من العبارات التي أبحث من خلالها عن طريق نحو الخلاص. كنت أنوي السكوت أدرت ظهري وسرت خطوات قليلة نحو العودة إلى اللا مكان والموت والحرية تناديني صارخة بكل قوتها هيا اخرجوا ماذا تنتظرون؟ وقفت واستدرت عدت إلى مصطفى وأحمد عند الباب وقلت له: سوف نذهب معكم انتظرونا وقف مصطفى مذهولاً.. ماذا تقولين؟ قال أحمد: تهيأوا وتعالوا باتجاه منزلنا سننطلق من هناك.

دخلت الغرفة كنت قد جهزت مسبقاً حقيبة صغيرة فيها كل الأوراق الثبوتية وكنت قد خبأت الذهب والمال في مكان ما تحت ردائي. دخل مصطفى مسرعاً ورائي قال: لن نهرب، قلت له: إذاً ابقَ أنت وسأذهب أنا وابنتي لن أنتظر أبدًا. قال: انتظري ماذا تفعلين؟ كان هو يصرخ ويرفض وأنا ارتدي عباءتي ونقابي وكذلك ابنتي جعلتها ترتدي ملابس سميكة لأن الجو بارد جداً، هو يصرخ ويرفض وأنا مصرة على قراري. كأنّ قوة عظيمة اجتاحت قلبي وعقلي ولم أعد أرضخ لأي أحد. فاستسلم لقراري أخيراً في

أقل من عشرة دقائق كنت قد تهيأت تماماً وتوجهنا باتجاه منزل أحمد كانت عائلته تنتظرنا في الشارع كانوا يحملون أشياء كثيرة أما أنا فلم أحمل شيئاً أبداً لم أرد غير الحرية ورؤية السماء الزرقاء الحقيقة لا شيء أبداً غيرهما. كنا نسير بصورة طبيعية كأننا نسير لأجل التسوق وحين وصلنا نهاية الحي فإذا بعشرات الأشخاص شباب ونساء وأطفال يسيرون كلهم باتجاه واحد كنت أنظر إليهم بخوف لأن طريقة سيرنا هذه سوف تكشف أمر هربنا وأن المنطقة لا زال فيها عدد من عناصر التنظيم يظهرون بين الحين والآخر كنا نسير بحذر جداً وترقب. بينما كنا نسير اقتربنا من أحد الأفرع فإذا بأطفال يصرخون عناصر من التنظيم قادمون تفرق الناس ودخلوا المنازل والكثير منهم عاد أدراجه ونحن أيضاً دخلنا في أحد الأفرع واتفقنا إذا ما تم سؤالنا سنقول نحن ذاهبون إلى منزل خالتي القريب من هنا. دخلنا ووقفنا لبرهة في ذاك الفرع أصر مصطفى على العودة وعدم إكمال الطريق لكني رفضت. عاد أحد الشباب ونادى وقال: تعالوا لقد رحلوا من هنا. كنت أمسك بيد ابنتي وأسير بهدوء ثم أركض إلى أن وصلنا إلى طريق طويل جداً عقارب الساعة فيه توقفت في أول خطوة وضعتها فيه تثاقلت أقدامي وازدادت سرعة النبض وأنفاسي تتوالى كأنها الأخيرة أنظر إلى الطريق وإلى جموع الناس حولي أمامي الكثير قد وصلوا وخلفي الكثير لازالت خطواتي تسبقهم جاءت أمام عيني جدتي وكلامها بأن يفتح الله لي طريقاً يأخذني إليها مباشرة بلا أي خطر أو أذى كنت أسير وأدعو الله أن

تصل ابنتي وزوجي بخير. للهاربين خوف ملامح حزن لا تشبه أي ملامح الكل في سباق مع الزمن كباراً وصغاراً.

كبار السن رجال ونساء حركتهم بطيئة لكن كأنهم أرسلوا قلوبهم إلى الأمام كي تشدهم بقوة بعد أن خانتهم قواهم وإقدامهم وقيدت حركتهم. كان الناس قد فتحوا أبواب منازلهم على طول الطريق لأجلنا إذا ما جاء أحد عناصر التنظيم أو كشف أمرنا. أتذكر رجلاً كبير في السن كنت أركض وصوت أنفاسي وتوتري قد وصلته قال اهدئي يابنتي وسيروا ببطء لا أحد هنا اطمئنوا ولتصلوا بخير لا تخافوا أبداً المكان آمن. وصلنا إلى التل وكنا نسير عليه بصعوبة بعد عناء وصلنا القمة. كان هناك سلسة من البشر ممتدة على الطريق من أسفل التل إلى قمته كان الشباب يساعدون النساء وكبار السن في سلوك الطريق وحتى أنهم جلبوا كراسي متحركة وكانوا يضعون عليها كبار السن من الرجال والنساء ويقودهم لأعلى التل وثم ينزلون ليجلبوا غيرهم وهكذا كانت روح التعاون والرحمة قائمة بين الجميع. وصلت إلى أعلى التل وبدأت أنظر إلى الطريق ظننت بأننا وصلنا لكن القمة كانت بداية حكاية الهرب.

كانت الأمطار قد بللت الأرض وأصبح الطريق موحلاً والحركة صعبة جداً عليه. كان الطين تحالف معهم وبدأ يثقل من حركة أقدامنا أكثر ونحن نريد المضي أسرع. كانت الحركة صعبة جداً والكل ينزلق أثناء السير. كان

الوصول إلى الوادي طويلاً وصعباً. العشرات من النساء والرجال الكبار والصغار والعجائز الذين لا يقون على الحركة وحتى الأطفال الكل في عيونهم الرهبة والرغبة والرهبة من المجهول في هذا الطريق الذي سلكناه وقيل أن نهايته تكمن الحرية والرغبة في الوصول ونيل الحرية الكل يتدافع الكل مسرع الكل يريد الوصول بسرعة أكبر والكل ينظر أمامه فقط ولا ينظر للوراء لا يريدون حتى معرفة ماذا يوجد خلفنا أردنا كلنا نسيان ما كنا فيه مهما كان الثمن. أصبحنا في الوادي ومشاهد كثيرة حفرت في رأسي لن أنساها أبداً الأرض يصعب السير فيها بسبب الطين ومياه الأمطار الراكدة والمياه الآسنة في كل مكان أمسك مصطفى بيد ابنتي وسرنا ببطء وحذر كي لا نقع على الأرض فلا زال الطريق في بدايته. كان كبار السن يسيرون لوحدهم أحياناً وباقي أفراد العائلة أمامهم يركضون وأطفال كثر على يميني ويساري لوحدهم لا أعلم أين أهلهم، وأطفال ونساء علقت أقدامهم بالطين وكانوا يحاولون الخروج منه، شباب يركضون مسرعين أطفال تبكي نساء تصرخ رجال يحملون أطفالهم ويركضون جثث ملقاة في الطريق لازالوا ينزفون استهدفهم التنظيم صباحاً حين حاولوا الهرب وكشف أمرهم وهذا يعني أننا في وسط الخطر وفي مرمى نيرانهم. كنا نسير فإذا بشاب من ذوي الاحتياجات الخاصة قد علقت قدماه في المياه الآسنة وأمه تبكي وتحاول إخراجه لكن لم تقدر ولم يدركها أحد أو يساعدها الكل لاهٍ في طريقه.

طلب مني زوجي إكمال الطريق وذهب لمساعدتهم أسر نظري طفلة صغيرة تبكي وتسير لوحدها سألتها أين أهلك لم تجب وركضت مسرعة إلى الأمام. ولم يكن بيدي حيلة وابنتي بيدي ذات التسع سنوات كنت أمسكها بقوة أكثر خوفاً عليها.. كان المشهد حولي لا يوصف وكل ما أفكر فيه هو وصولنا بر الأمان. جاء مصطفى إلينا بعد أن ساعد ذاك الشاب وأمه ركضنا باتجاه طريق كان الكل يسير فيه لا نعلم إلى أين يأخذنا فقط نركض خلفهم وصلنا إحدى القرى أو العشوائيات لا أعلم ما كانت.. كان هناك قناص أمام مدخل تلك القرية متمركز بالضبط أمام حد فاصل لعبور الناس ولا جدار يحميهم من نيرانه صرخ الرجال أسرعوا وبالفعل ما إن وصلنا المدخل فإذا بالقناص يطلق النار علينا وكان الكل يركض رأيت الطلقات تحت أقدام ابنتي لكن بفضل الله لم تصب كان زوجي يركض ويمسك بنا ويجرنا خلفه بسرعة ومن فضل الله ونحن في كل هذه الأهوال فإذا بابنتي تقول لي أمي هيا لنسرع لا تجعلوني أتأخر على صلاة العصر كانت السعادة تغمر قلبي لأن ما زرعته في داخلها من حب للصلاة أصبح رفيقاً لها بكل الأحوال الحمد لله.

عبرنا تلك المنطقة الخطرة بأمان ولم نصب ولم يصب أي أحد ممن كان معنا لا ماء حولنا وكدت أختنق من العطش بسبب الركض المستمر وصلنا إلى طريق خالٍ كانت جثث القتلى في كل مكان وإذا بأحد الشباب يسقط من

شدة التعب وهو يحمل جسد طفل يبلغ الحادية عشرة من عمره كان مصاباً ولازال حياً أخذه مصطفى وحمله وكان ينزف سرنا خلفه وصلنا إلى شارع لم أمر به من قبل. رأيت شجرة كبيرة معلق عليها قطعة قماش سوداء نظرت لأسفلها كان يقف جندي من القوات الأمنية العراقية لم أرَ هذا المنظر منذ سنين أكتبها والبكاء وذات الشعور تملكني الآن ولم أصدق ما أرى ابنتي بدأت تصرخ الجيش أنهم الجيش.. زوجي نظر إليّ وهو يحمل ذاك المصاب أخذوه منه ووصلت بقرب الجندي بكيت كما أبكي الآن وأكثر تذكرت عمي الصغير والكبير اللذين ذبحا ولم ينالا الحرية تذكرت الظلم الذي أصابنا تذكرت الخوف تذكرت قسوة الناس والدنيا بكيت بقوة وسقطت أرضاً خاطبني الجندي وقال: قولي بالله لقد انتهى كل شيء أنتم بأمان رميت ذاك الخمار مثلما فعلن النساء وسرت عليه وأنا أبكي وأول شيء فعلته اتصلت بأمي وأبي وقلت لهم لقد تحررنا.

حين وصلنا كان المكان مكتظاً بالهاربين والكل يذهب إلى التدقيق الأمني أولاً كي يتم التأكد من الأشخاص وكشف الهاربين من عناصر التنظيم بين الناس.

وفي هذا المكان وقف شخص كان يرتدي زي الحسبة وكان يتصل بالهاتف انقض الناس عليه وأوسعوه ضرباً ولولا وصول القوات الأمنية في الوقت المناسب لتم القضاء عليه تماماً اتضح فيما بعد أنه كان يعمل متخفياً في

الحسبة طيلة فترة احتلال المدينة فعلاً لكنه كان ضابطاً في القوات الأمنية. كان السفر مسموحاً من أي محافظة إلى المناطق المحررة في مدينتي لذلك قالت لي أمي أنهم سوف يأتون غداً صباحاً.

ذهبنا عند منزل خال أحمد صديق مصطفى أناس كرماء وكان منزلهم مفتوحاً للكل قضينا ليلة كاملة كانت ليلة مختلفة هدوء وسكينة بعيداً عن الحرب وعن الظلم وعن الخوف.. السماء التي فوقنا ليست كما كانت هناك في الحي.. هنا كل شيء فيه روح وحياة وهناك كان كل شيء مظلماً وبلا حياة. في اليوم التالي في الساعة التاسعة صباحاً ذهبنا أنا ومصطفى وابنتي إلى بيت عمي في المناطق المحررة وكان هناك لقائي الأول بأمي وأبي بعد فراق طويل دام لثلاث سنين.. طبعاً شعور لا يوصف لذلك لن أتكلم عنه سوف تفهمون ما أقصد تماماً. قضيت مع والديّ ليلة واحدة كانت مليئة بأحاديث الاشتياق والحديث مع أخواتي وإخوتي عبر الهاتف لم نكن نصدق أننا تحررنا بدون أي أذى ونجونا وها نحن هنا الآن.

في صباح اليوم الثاني من تحريرنا نهضت وكنت قد تهيأت لأجل السفر مع والدي ووالدتي إلى الإقليم ولكني تفاجأت بأمي تقول لي بأنهم لا يستطيعون أخذي بسبب القوانين المشددة التي وضعت ومنعت عبور أي شخص تحرر حديثاً من المدينة لأن هناك كثير من عناصر التنظيم قد قاموا بالهرب وتغيير هوياتهم وعبروا إلى محافظات أخرى على أنهم مدنيين وبالفعل عند

الساعة التاسعة صباحاً ودعت أمي وأبي بعد لقاء قصير ودعتهم بحزن لأني كنت قد خرجت من الحي الذي أنا فيه وهربت وعرضت حياتي وحياة زوجي وابنتي لأجل أن أراهم وأذهب معهم لكن هكذا حصل.

تحركت سيارة أبي وأنا بقيت عند باب بيت عمي أنظر إليهم وهم يغادرون.. شعور بالحزن والخذلان تداخلا مع بعض تلاشت السعادة التي كنت أحلم بها في لحظات خرجت من منزل عمي أنا وابنتي وزوجي نسير في الشارع لا نعلم أين نذهب لا أقرباء عندنا هنا فكل من نعرفهم لازالوا لم يتحرروا بعد. عدنا لمنزل خال صديق مصطفى الذي كان صديق أيضاً لمصطفى بقينا هناك ليلة أخرى وعند الصباح اتصلت أم مصطفى لتخبرنا بأنهم تحرروا الحمد لله وعدنا سيراً على الأقدام وكان الطريق خطراً فقد قام التنظيم بزراعة المتفجرات على كل الطريق وصلنا المنزل وكل من كان في الحي يبدو عليه الفرح والسعادة كأننا في أول أيام العيد. نعم تكبدت العناء والمشقة وواجهت الموت أنا وعائلتي كي أخرج من المدينة لكن لم أخرج فالحصاد مستمر مثلما رأيت في حلمي سابقاً.

مع تحرير آخر منطقة بقرب النهر كان الجانب الأيسر بأكمله قد تحرر تماماً. إلا أنّ الجانب الأيمن لازال غير محرر العمليات مستمرة وقد تأخرت بسبب تداخل المناطق والأحياء مع بعضها وأيضاً اتخاذ المدنيين دروعاً بشرية من قبل التنظيم. أصدر التنظيم فتوى بأن كل أبناء الأيسر هم

مرتدون ويجب ذبحهم لأنهم لم يقفوا معهم ويقاتلوا لأجل الدولة الإسلامية.

كانت عمليات التحرير قد سجلت أحداثاً لم تروَ حتى في القصص أو تشاهد في أفلام عالمية كانت سماء الجانب الأيسر مليئة بالطائرات التي تقف وتطلق الصواريخ على عناصر التنظيم الذين يتمركزون في المدينة القديمة في الجانب الأيمن. القوات الأمنية تسيطر على بعض المناطق وكان الأهالي يقومون بالهرب بعدة طرق وكانت نتيجة الهرب باهظة الثمن للبعض لا بل الكثير منهم سأحكي لكم ماجرى هناك أثناء عملية التحرير والتي لن ينساها بشر. كان التنظيم يقاتل بكل ما لديه من قوة وكل ما لديه من عناصر محليين لأن الأجانب منهم كانوا قد فروا مسبقاً قبل بدء العمليات العسكرية والأمراء والولاة أيضاً. بينما كان التحرير مستمراً في الأيمن كانت الحياة تحاول جهدها للعودة وطرق أبواب المنازل التي لا زال أصحابها أحياء دخل المدينة المسؤولين والمدراء في زيارات متقطعة. كان التنظيم قد أصدر فتوى بأن أهالي الجانب الأيسر كلهم مرتدون وقتلهم حلال لذلك قاموا باستخدام طائرات (الدرونز) المسيرة لإلقاء القنابل على الناس في الشوارع وإطلاق قذائف الهاون والصواريخ من الجانب الأيمن على الجانب الأيسر وراح ضحيتها الكثير من المدنيين بعد التحرير.

كانت هناك حملات يقوم بها الموظفون والشباب والشابات لتنظيف المدينة أو الجانب الأيسر المحرر قاموا بتنظيف الكنائس والجوامع والمدارس شارك في هذه الحملات قسم كبير من الموظفين والطلاب لتعود الحياة إلى المدينة بسرعة أكبر.

بينما كنا ننظف قامت سيدة كبيرة وهي مديرة لإحدى الدوائر بتوزيع العصير وقطع من الحلوى على الموجودين وحين وصلت لأحد الشباب أخذ قطعة الحلوى وضمها لصدره وأجهش بالبكاء سألته ماذا حصل ولماذا البكاء هكذا قال كنت قد وعدت ابنتي أن أشتري لها قطعة حلوى حين نتحرر لأنها نفدت من المدينة منذ زمن وكانت تبكي وتريدها ذات يوم أخذتها لأهرب وطلبت منها أن تبقى صامتة حتى نصل كي لا يكشف أمرنا ووعدتها أني سأشتري لها قطعة حلوى عبرنا ووصلنا بسلام أنا وهي وأمها وحين وصلنا حملتها لأعلى فرحاً وقلت لها ها قد وصلنا سأشتري لك قطعة الحلوى ولكن أجابتني قطرات الدم التي سالت من جسدها النحيل الذي قد أصابته رصاصة قناصة ولم أعلم بذلك كانت قد فارقت الحياة ولم أشترِ لها قطعة الحلوى. كان هذا هارباً من مدينتي.

وفي إحدى الحملات التي قمنا بها لتنظيف الجوامع والمساجد وجد شاب ممزق الملابس يبكي فقط ويضرب رأسه في الجدار حاولوا تهدئته وطلبوا منه

الحديث عما جرى له ليكون بهذا الشكل وبهذا الحزن ووحيداً يجلس هما وبدأ يسرد مأساة حصلت له وخزنت ففي ذاكرة كل من سمعها وقال:

أردت الهرب من قيود فرضت علينا لأجل ولديّ اللذين قد يقتلهما الجوع إذا ما بقيا هنا ساكنين دون حراك لكن أطفالي صغار وأصوات القصف والصواريخ ستجعلهم يصرخون ويبكون خوفاً وسيجعل عيون الشر ترصد تحركنا وينتهي أمرنا أعطيتهم جرعة من دواء تجعلهم ينامون انتظرت أن يسدل الليل سواده وحملت ابني أمير وزوجتي حملت هيثم الطريق أصبح طويلاً تثاقلت خطانا وأجسادنا ترتعش رعباً والصمت في ظلمة اليل يسكن الخوف في القلب. سرنا في الطريق وكان المكان يخلو إلا أن عيون من بعيد تترقب دون أن نعلم فأطلقت الرصاص وركضنا مسرعين لكن الرصاص أسرع من خطوات أقدامنا رصاصة واحدة أصابتها في ظهرها وخرجت من صدرها لتخترق جسد طفلنا هيثم وهي تحتضنه بقوة كي تحميه فماتا سوياً وضعت ابني النائم بين يدي على الأرض وقمت بحمل جثة زوجتي وابني الصغير وحفرت في الأرض وقمت بدفنهم الأم وطفلها سوياً في لحظة لا يمكن أن يتخيلها عقل أردت أن آخذهما إلى بر الأمان وها أنا قد وضعت التراب فوقهما وودعتهما بلا عودة حملت طفلي أمير النائم وأكملت طريقي نحو الحرية؛ وصلت نهاية الطريق هناك حملت ابني أمير وأنا أبكي

على من ماتوا والحرية تبعد عنهم خطوات رأيت الناس فرحين من حولي بدأت أضحك.

داعبت ابني النائم وحاولت إيقاظه كي أطعمه لأن الجوع كان قد أنهكهم لكنه لم يصحُ يبدو أن مفعول الدواء لم يزل بعد حملته بين يدي وقمت بتحريكه بقوة كي يصحو وإذا بدماء تسيل من جسد الطفل الصغير لم يكن مصاباً متى أصيب وكيف لم أنتبه للدماء تلك نظرت إلى وجه طفلي بصمت.. سكت وبدأ يضرب رأسه من جديد خارت قواه وجلس على الأرض وأكمل:

إنه هيثم الذي أصيب بين يدي أمه لقد دفنت ابني الحي أمير وكنت أظن أنه ابني الذي أصيب بالرصاص ومات.. إنه ظلام الليل الموحش الغادر جعله يدفن ابنه الذي كان نائماً بيديه دون أن ينتبه، أراد أن يعود كي يخرجه عله يكون حياً، لكن لم يسمحوا له فالمعركة كانت قد بدأت. تركنا وجلس بعيداً ورفض أن نقترب منه مجدداً. ظلام الليل أمل للهاربين من قيود الظلم التي حبست الأنفاس قبل الجسد طريق الباحثين عن الحرية موحش وضياء القمر الذي يزيح عتمة الليل دليل لتلك الخطى التائهة وإذا ما حجبت الغيوم ذاك الضياء تختفي ومضة الأمل ويصبح الخطأ مباحاً ويتحول الحلم إلى كابوس بشع وتصبح الحياة هي الثمن ونتمنى أننا لم نجعل

من ظلام الليل ملاذاً لأجل صباح بلا أمل ولا وطن. كان هذا رجلاً تائهاً من مدينتي دفن ابنه حياً وقد وعدوه مسبقاً بالحرية.

المعارك في الأيمن مستمرة واتصلت بابنة عمي المتزوجة الموجودة في المدينة القديمة أخبرتني أن الطعام والشراب قد نفد وأنهم يشربون ما يتم جمعه من مياه الأمطار وحتى المياه الآسنة وهم لم يأكلوا أي شيء. وانتظرت اتصالها بعد أيام لكنها لم تفعل وسمعنا الأخبار التي تناقلها الناس أن التنظيم قد جمع العوائل القريبة من الجامع الذي فيه منارة الحدباء واتخذهم دروعاً بشريه في تلك المنطقة منعاً لوصول القوات الأمنية إليهم.

وفي أماكن أخرى كانت القوات الأمنية قد قامت بتحرير بعض المناطق القريبة من النهر في الجانب الأيمن وقامت بمد جسور حديدية لإجلاء المدنيين وإيصال الإمدادات العسكرية والغذاء للقوات الأمنية التي تمركزت هناك في المناطق المحررة. كنا نتابع عمليات التحرير في الأيمن بدقة لأن الوضع لن يكون آمناً إلا إذا تم تحرير المدينة بأكملها.

في الجانب الأيسر عادت بعض المدارس لفتح أبوابها أمام الأطفال والكوادر التدريسية في محاولة بائسة أقول عنها لأجل عودة الحياة. كان مصطفى يقف في أحد الصفوف ويقوم بتدريس الطلاب وتطوع لأجل أبناء المدينة بذلك دون مقابل كان يعلمهم الحساب والعربية وكل المواد تقريباً لقلة

الكوادر التدريسية بعضها لم يتحرر والآخرون خارج المدينة نزحوا قبل الاحتلال.

عاد ذات يوم زوجي مصطفى وما أن دخل بدأ بالبكاء سألته ما بك؟ قال: كنت أدرّس التلاميذ وكان أحد الطلاب شارداً ولا ينتبه لي ناديته وقلت له: أنت.. لمن أشرح أنا وأنت عيناك خارج الصف؟

لم يجب.. أجابني التلاميذ بدلاً عنه إنه هكذا في كل يوم وفي كل الوقت لا يفعل شيء سوى النظر هناك عبر النافذة، سألته مجدداً فنظر إليّ وأشار بإصبعه الصغير وهو يرتجف ويبكي: هناك قبر أمي وإخوتي أنا آتي هنا لأجلهم كل يوم كي أكون قريباً منهم. قال مصطفى بدأت أبكي في الصف وأنا بلا حول ولا قوة كيف وهو طفل لا يقوى على حمل حقيبة قد أثقلته الحياة بهم لا يحمله إلا رجل. كان هذا طفل من مدينتي.

كان الجسر الذي شيدته القوات الأمنية قد ساعد الكثير على الهرب. وكان أثناء هرب إحدى العوائل المتكونة من ستة فتيات وأم وأب هربوا من أحد المناطق ووصلوا الجسر الحديدي عبر النهر لكن أصيب الأب برصاصة قناصة وسقط طلبت الأم من الفتيات أن يكملن الطريق وعادت لجلبه لكنها أصيبت أيضاً في العمود الفقري وقامت القوات الأمنية بإجلائها بعد قتل القناص لكن الأب كان قد استشهد والأم أصيبت بالشلل.

وكانت عمليات الهرب أيضاً تكون عن طريق عبور النهر من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر بواسطة القوارب. كانت القوات الأمنية تعثر على كثير من الأطفال أثناء العمليات العسكرية بين الركام وأثناء عمليات الإجلاء كانوا يفقدون أهاليهم بسبب الهرب أو الموت وقد خصصوا داراً للأيتام لوضع كل الأطفال، هناك أمل في عودة أهاليهم إذا كانوا أحياء. بالفعل أخبرتني زميلة لي تعمل هناك أن طفلة تبلغ من العمر ست سنوات وصلت إلى الدار وبعد أيام جاء أحد الأشخاص وراءها وقال أنه يعرف والدها وبالفعل جاء والدها وما أن دخل الدار حتى عرفته وهي تلعب بين الأطفال أخبرهم أنها أثناء الهرب ليلاً في القارب كان صراخ الأطفال وسقوط الناس في الماء وإطلاق الرصاص أثار الهلع عندها فقامت برمي نفسها بالنهر وكنت أظن أنها ماتت إلى أن أخبرني صديقي أنه رآها هنا عندكم.

الطعام والأموال أصبحت من النوادر في الجانب الأيمن لكن أهل الخير كثر قاموا بالاتصال ببعض ممن يمتلكون الأموال لشراء الطعام وإيصاله للأهالي في الجانب الأيمن بطرق مختلفة لكن أيضاً هذا لم يكن كافياً لتوزيع الطعام للمحتاجين وبقي الكثير دون طعام.

وصل سعر الزيت الخاص بالطعام إلى مئة ألف وكيس الطحين إلى مليون دينار والسكر الملعقة الواحدة كانت تباع بعشرة آلاف دينار. وهكذا ارتفعت الأسعار وكانت المواد محتكرة لديهم فقط؛ هم فقط من يأكلون

ويشربون كيفما يريدون. في إحدى المناطق كان رضا وأخوه يعملان على أخذ الطعام من مخازن التنظيم سراً ويقومان بتقسيمها وتوزيعها على الفقراء كانا يتعرضان للموت في كل مرة لأجل إطعام الناس وفي أحد الأيام كانت المنطقة بدأت تخلو من عناصر التنظيم لذلك قرر رضا وأخوه أن يأخذا معهما كل من في الحي ويخرجوا باتجاه القوات الأمنية المحررة وبالفعل خرجوا مع حوالي أكثر من مائتين عائلة كان عناصر التنظيم فقط أربعة في الحي وحملوا السلاح ومنعوا الأهالي من الخروج لكنّ رضا وأخاه رفضا الانصياع لأوامرهم فقام التنظيم بقتل أخي رضا وانقض الناس ورضا على العناصر واستطاعوا الهرب والوصول إلى بر الأمان.

اتصلت بي ابنة عمي وأخبرتني أن خالي والكل وابنه الأكبر ذهبوا لجلب الماء من النهر لكنهم لم يعودوا وزوجته وابنته الكبرى وزوجة ابنه وأطفالهم ماتوا كلهم، قد تهدم سقف البيت على من فيه بسبب الصواريخ التي سقطت عليهم.

كان ما يحدث في الجانب الأيمن قاسياً وكان أصحاب السيارات يقفون عند الأماكن التي يصل إليها المحررون أو المناطق التي يتم إجلاء الأهالي منها. كان الناس يصلون ويتحدثون عما حصل.

لا أريد أن أموت.. كانت عبارة ترددها أم محمد حين خرجت ليلاً للهرب من الجوع والقصف سقطت عليهم قذائف الهاون تناثرت أجساد كل أفراد عائلتها وأصيبت بقدمها لم تستطِع سوى الزحف؛ زحفت باتجاه ابنتها لتراها مقطعة الأطراف وزوجها قد تمزق جسده وابنها محمد وصلت إليه وكانت أطرافه مقطعة وإصابته بليغة.. قال لها آخر جملة: لا أريد أن أموت؛ بعدها فارق الحياة. كيف ستكمل حياتها ورنين صوت ابنها وهو يريد البقاء سيبقى ملازماً لها طيلة عمرها؟

أما عن سحر التي فقدت زوجها وتركها مع طفلين وحيدة بلا طعام أو سند. ذات ليلة فتحت باب خزانتها أخذت كنزها الذي لا تملك سواه صورة زفافها أخذتها قررت الهرب أمسكت بولديها وأسرعت فتحت الباب وخرجت تسير ببطء وخوف لكن التنظيم كان يضع الواح من الحديد في الأزقة ويضع المتفجرات عند أبواب المنازل كي لا يهرب أحد سمعت خطى أقدامها لحق بها أحدهم وطلب منها التوقف لم تأبه له أكملت طريقها وإذا بصوت الرصاص ينهال عليها سقطت وبعد أن أفاقت كانت في المستشفى وقد استشهد أطفالها وأصيبت هي وفقدت كنزها ولم يبقَ لها أي شيء. أمهات كثيرات فجعن بفقدان أبنائهن وكان بطرق عديدة إما حرقاً أو رمياً بالرصاص أو الموت أثناء الهرب.

أم ليلى التي حملت ابنتها التي انفجر عليها لغم أرضي هي وشقيقتها أثناء الهرب ماتت ابنتها الصغرى وبقيت ليلى تصارع الموت حملتها بكل ما أوتيت من قوة على ظهرها وهي تبكي على التي ماتت وتقول لليلى سنصل قريباً سنصل وما أن وصلت إلى منطقة فيها الجيش وضعتها في الأرض وإذا بها قد فارقت الحياة دون أن تعلم.

أم سعد التي أوقدت تنور الخبز بدأ جسدها يغلي ويدق قلبها بسرعة كان النيران بدأت تلتهمها كانت تختنق دون معرفة السبب قالت لابنتها لا أعلم ماذا يجري لي كأنَّ هناك شيئاً ما سيحصل لم تكن تعلم أنّ ابنها سعد في تلك اللحظة يتم قتله أمام أنظار الناس ووالده أيضاً يقف بصمت بتهمة التجسس. أم بشار قتل ولداها على يد التنظيم والثالث أيضاً ورفضت إلا أن يدفن وسط غرفتها لأنها لم تعد تحتمل فراق أولادها.

سأخبركم عن أم تجلس كل يوم عند جرف النهر تستذكر أولادها الثلاثة الذين ذهبوا لجلب الماء من النهر مع والدهم وغرق الثلاثة ولم يعودوا فأصبحت تجلس هناك كل يوم وتقول للناس إنها سوف تراهم وأنهم سيعودون. ليست الأمهات فقط بل الأطفال والرجال كان لهم قسم كبير من الوجع فقد ابتلي منهم بالمسؤولية.

مالك يبلغ من العمر تسع سنوات قُتل أخيه الصغير أثناء احتلال المدينة وأخذ يرسم كل يوم علم العراق خفية دون أن يراه أحد وعزم على حمله أثناء دخول القوات الأمنية منطقتهم وتحريرهم. بالفعل حمل العلم أثناء التحرير قبل وصوله للقوات بأمتار قليلة أصابته رصاصات من نساء تابعات للتنظيم كنَّ يسرنَ معاً أثناء التحرير تلاشى ولم يبقَ سوى العلم.

سيف طفل آخر حين سقط صاروخ على منزلهم أصيب أخوه وتمزقت أوصاله قام سيف بوضع أخيه في عربة من حديد وأخذه سريعاً إلى المستشفى دخل وطلب منهم أن يعيدوه كما كان لم يكن يدرك أنه فارق الحياة ومن يفارق الحياة لا يعود.. كان يظن أنه مثل الدمى التي تصنع من قماش حين تتمزق يمكن أن نقوم برصها من جديد.

أبو دنيا أصيبت ابنته وأخذها مسرعاً إلى المستشفى وحين وصل رفضوا أن يعالجوها بقي هناك يتوسل بهم وحين أراد العودة للمنزل كانت منطقته محاصرة وفيها قصف عنيف لم يستطع الدخول عاد إلى المستشفى وحين هدأ القصف كانت منطقته وعائلته كلها قد تحررت وانقطعت أخبار عائلته ولم يرهم إلى بعد تحرير المدينة بالكامل.

اقتاد التنظيم الكثير من الرجال إلى جهات مجهولة ولا زال لا يعرف أحدٌ عنهم أي شيء لحد الآن. قيل أنهم أخذوهم كدروع بشرية وقيل أيضاً أنهم

وضعوهم في مستشفى الموصل لا نعلم أيهم بالتحديد وتم قصفهم، وقيل أنهم أخذوهم إلى مدينة الرقة السورية وألبسوهم زي التنظيم ووضعوهم وسط جموع عناصر التنظيم وتم قتلهم أثناء المعارك كما أنهم جعلوهم يحفرون الأنفاق وأيضاً قبل بداية التحرير وقسم كبير منهم قبل قتلهم تم أخذ أعضائهم وبيعها.

كان من أشد الحوادث قسوة وعلق في أذهان الناس هي حادثة أو مجزرة معمل البيبسي أو شارع معمل البيبسي حين خرجت مئات العوائل للهرب ليلاً كانوا يظنون أنّ المكان خالٍ من عناصر التنظيم وأن الشارع آمن باتجاه القوات الأمنية لم يكونوا يعلموا أن الشارع كله ملغم بالكامل وحين دخل الناس وأصبحوا في الوسط انهالت عليهم مئات الانطلاقات النارية وصواريخ وقذائف الهاون لم ينجُ إلا قلة من تلك العوائل.. لم تنجُ عائلة بأكملها؛ من نجا كان إما أباً أو أماً أو أطفالاً كانت مجزرة كبيرة ولا زالت الصور والأسماء وبقايا ملابسهم معلقة على جدران ذاك الشارع. الكثير من المصابين كانوا يبقون في أماكنهم إلى أن يموتوا معاناتهم كانت كبيرة ليس فقط إصابات بل مشاهدة أهلهم حولهم موتى وممزقين هو أكبر وأشد من أي إصابة.

القوات الأمنية كان لها دور كبير ومواقف بطولية محال أن تُنسى ويرويها الناس دائماً. يمكنني أن أذكر لكم البطل سعد الذي رص الجنود خلفه

وجلس في الأرض في وسط المعارك في محاولة لإرضاء طفلة ومساعدتها هي وأخيها الذي بين يديها الصغيرتين؛ رص الجنود وبكى كل من خلفه حين سأل الفتاة عن أهلها وقالت له قتلوا وأنت هل ستقتلنا أيضاً؟ بكى وبكى كل من خلفه وأخذ بيدها إلى بر الأمان.

أما عن مقاتل في صفوف الحشد الشعبي أنقذ طفلة تبلغ من العمر أشهر معدودة فقط بعد بقيت وحيدة حملها بين أحضانه وخبأها أمام صدره وخرج مسرعاً يحميها بظهره لكن طلقة قناصة اخترقت جسده واستشهد بعد أن أوصلها لبر الأمان.

حسين لازال في أول أيام شهر العسل ولبى نداء الوطن وعند تحرير إحدى المناطق أخذ الدواء لصالح وهو مسن مريض وتقاسم معه حبات من البرتقال لم يكن يملك غيرها وبعد أن همَّ بالخروج كان القناصة بانتظاره وسقط شهيداً..

الخاتمة

الجندي هو الوطن

كانت طيبة قلوبهم والرحمة لا توصف كانوا يعطون طعامهم للمحررين ويبقون دون طعام كانوا يجلون الأهالي تحت مرأى القناصة ولا يهتمون لأرواحهم كانوا يحاصرون يتصلون بأهاليهم ويودعونهم لأنهم عاهدوا الوطن أن يعيدوا مدينتي إليه كانوا يفضلون الموت على أن يتركونا جاؤونا محررين وأصبحوا شهداء لم يبقَ منهم سوى ذكرى في هواتف ذويهم.

أما عن القادة فأبناء مدينتي يعرفونهم أكثر مما يعرفون أبناءهم كانوا أبطالاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى كانوا قادة بحق فحين يترك القائد مكانه ويجلس بين الجنود متناسياً الرتبة التي على كتفه ومكانته وحين تبحث طفلة محررة عنه كي تراه لأنها كانت تنتظره وتعلم أنه هو من يساعدهم على الخلاص فهذا يستحق لقب عبد الوهاب الأمل والساعدي البطل، ومثله عبد الغني الأسدي الذي جاء ليقود المعارك دون مقابل وعبد السلام وسعد كثر هم ربما أنسى أسماءهم أو لا أعرف هوية بعضهم لكنهم أولاً وأخيرًا أبناء العراق أما عن من فقدناهم فذكراهم لن تزول أبداً.

القائد الساعدي فإن اسمه له وقع خاص عند أبناء مدينتي.. عرفه الأطفال قبل الكبار في أحد الأحياء في الجانب الأيمن. تحرر حي خرجت طفلة باكية تصرخ أين هو وتركض مثلما صورتها عدسات الفضائيات وما أن رأته قفزت مسرعة لأحضانه.. لن أكتب عنه لأن ذكراه ستبقى في أذهان أبناء مدينتي مهما توالت الأجيال فحين تركض طفلة صغيرة لا تعرف ما

معنى قائد تعرف فقط أنه هو وجنوده المحررون وتنادي وتصرخ أين هو؛ أعتقد هذا يكفي أن يخط اسمه في بداية كتب التاريخ.

في يوم أعلن عن تحرير الجانب الأيمن بالكامل كان يوم النصر والخلاص أبطال بحق رفعوا راية الله أكبر من جديد، ولا تزال هناك عشرات القصص.

في يوم سرت في شارع اسمه شارع المنصة ورأيت العلم العراقي تذكرت العلم الأسود الذي كانوا قد وضعوه هنا طيلة ثلاث سنوات وحين رأيت العلم العراقي عرفت أنّه قطعة من قماش لكنه حياة.

كانت هذه حكاية القصاص.. صرخات، طرق أبواب، ريح تعصف، شرخ في الجدران تخلل منه دخان أسود ينذر بقرب موعد القصاص وبدأ عصر الظلم وسيادة السيف والدم في المكان. هلع الكل وأخذوا تعويذة قديمة وعلقوها على جسر عتيق تحته نهر يجري تحولت مياهه إلى دم فيما بعد علها تبعد نيراناً اقتربت وشراً كبيراً أحاط بهم. هامت أرواح الشر حول التعويذة أسقطوها في النهر تلاشت واختفت خائفة مما رأت. ذات يوم مع قرع طبول بشرت باقتراب موعد الخلاص وانجلاء الشر ضوء أنار فوق مدينتي وبريق خرج من النهر. ظهرت التعويذة وولت الريح هاربة تجر خلفها شراً دام لسنوات. أحدث ركام تحته أرواح تئن وتستغيث. أشرقت السماء بأنوارها وعادت للنهر ألوانه تطهرت من الظلم مياه ولم تعد التعويذة خائفة.

تمت بحمد الله

تعويذة خائفة

رواية

ميادة الحسيني

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com